

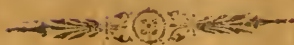
الأدب العربي

مقالات مختارة في العلم والأدب والفلسفة والاجتماع

تأليفه

محمد محمد عبد المجيد

النزاهة



حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة السعادة



السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

ولد السيد مصطفى فى مدينة منفلوط سنة ١٨٧٦م وهو ابن السيد محمد لطفى . حفظ القرآن صغيراً فأدخله والده سنة ١٨٨٨ م الأزهر الشريف وشغف بالعلوم الأخلاقية والأدبية فاشتغل بها ولحق بالمرحوم الشيخ محمد عبده ولصق به وأكثر من مصاحبته له فى درسه ومنزله عشرة سنين كاملة فاستفاد منه كثيراً وكان الامام يتوسم فيه ذكاءً ومنفعة للأمة . ولما مات رحل السيد الى منفلوط وراسل جريدة المؤيد سنة ١٩٠٨ فحازت قبولاً كبيراً عند قرائها . وله كتاب (النظرات) جمع فيه أحسن مقالاته وقصائده فقامت له ضجة كبيرة بين جميع الأدباء وليس ذلك عجيباً وله (رواية مجدولين والعبرات والشاعر)

فهو كاتب قدير وشاعر ماهر نثره يأخذ بمجامع القلوب ونظمه جيد جداً وهو أحد الكتّاب الأدباء المعدودين فى مصر أوكما قال لطفى بك السيد هو من أشياخ البيان فى مصر . يطرق

الموضوعات البعيدة فيقربها من القارئ، ويجعله يظن أنها من
مألفاته ولم تكن كذلك من قبل

قال أحد الأدباء المنفلوطي أول كاتب في مصر من كتاب
المأساء وأقدر الكتّابين على إدخاله المعاني في أذهان القارئين وصب
الأفكار الحديثة في الألفاظ القديمة وسبكها في قوالب عربية
محكمة وهو من كتاب الفضيلة الذين يثارون لها من الناس كما
يثار البدوي من قاتل أبيه



المختار من نثره غدر المرأة

يقصون في القصص الخرافية أن حكيمًا من حكماء اليونان كان يحب زوجته حبًا ملك عليه عقله وقلبه وأخاط به إحاطة الشعاع بالمصباح المتقد . وكان يمازج هناك الحاضر شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيام دورتها فيموت ويفلت من اشراكه ذلك القلب الذي كان مغتبطًا باعتلاقه إلى صائد آخر يعتقله من بعده . وكان كلما أبت زوجته سره وشكا إليها ما يساور قلبه من ذلك الهم حنت عليه وعالته بمسول الأمانى أقسمت له بكل محرقة من الإيمان أنها تسترد هبة قلبها منه حيا وميتا . فكان يسكن الى ذلك سكون الجرح الذرب تحت الماء البارد ثم يمد إلى هواجسه ووساوسه . حتى مر في بعض روحاته إلى منزله في ليلة من الليالى المقمرة بمقبرة المدينة فبدله أن يدخلها ليروح عن نفسه هموم الموت بوقفة بين قبور الموتى . وكثيرا ما يتداوى شارب الخمر بالخر ويدفع الخوف الخائف الى موطن خوفه ويلذ للحيان وهو يرتعد فرقا الاصغاء الى حديث الأفاعى وقصص الجان ؛ فرأى في بعض مسالكه بين تلك القبور امرأة متسلسلة جالسة أمام قبر جديد لم يحف ترابه ويدها مروحة

من الحرير الأبيض ، طرزة بأسلاك الذهب تهزها يمنة ويسرة
لتجفف بها بلل ذلك التراب . فعجب بشأنها وتقدم إليها فارتاعت
المرآة ثم أنست به حينما عرفته فسألها ما شأنها وما مقامها هنا ومن
هذا الدفين وما الذي تفعل ؟ فأبت أن تجيبه عما سأل حتى تفرغ
من شأنها : فجلس إليها ، تناول منها المروحة وما زال يصنع صنيعها
حتى جف التراب فحدثته أن هذا الدفين زوجها وأنه دفن منذ
ثلاثة أيام وأنها منذ الصباح جالسة مجلسها هذا لتجفف تراب
قبره وفاء يمين كانت أقسمتها له في مرض موته أنها لا تتزوج
من غيره حتى يحف تراب قبره وأن هذه الليلة هي موعد زواجها
من زوجها الثاني فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها
ويحسن إليها أن تحنث يمين أقسمتها له أو تحنث بما عاهدته عليه
ثم قالت هل لك يا سيدي أن تقبل هذه المروحة هدية مني إليك
وجزاء لك على حسن صنيعك معي . فتقبلها منها شاكرًا بعد أن
هناها بزواجها الجديد ثم انصرف وليس وراء ما به من الهم غاية
ومشى في طريقه مشية الراح النشوان يحدث نفسه ويقول :
انه أحبها وأحسن إليها فامات جلست فوق قبره لا لتبكيه
ولا لتذكره عهده بل لتحلل من الزواج من زوجها الثاني . وكانما
اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل امامها جبينها وتصفف طرفها
وتلبس حليتها بين سمعه وبصره للزفاف إلى غيره

وما زال يحدث نفسه بمثل ذلك حتى رأى نفسه في منزله من حيث لا يشعر ورأى زوجته ماثلة أمامه من تاعفه لمنظره المحزن فقال لها ان امرأة خائنة أهدت إلى هذه المروحة فقبلتها منها لاهديها اليك لأنها أداة من أداة القدر والخيانة وأنت أولى بهامنى ثم أنشأ يقص عليها قصة المرأة حتى أتى عليها فغضبت وانزعجت المروحة من يده ومزقتها وأنشأت تسب تلك المرأة وتنكفى عليها غدرها وخيانتها وتلقبها بأخس الألقاب وأقبحها ثم قالت ألا يزال هذا الوسواس عالقاً بنفسك ما دمت حياً وهل تحسب أن امرأة ترضى لنفسها بما رضىت به لنفسها تلك المرأة الغادرة؟ فقال لها إنك أقسمت ألا تتزوجى من بعدى فهل تفين بعهدك قالت نعم ورماني الله بكل ما يرمى به الغادر إن أنا غدرت . فاطمأن لقسمها وعاد الى راحته وسكونه

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضاً شديداً فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى أشرف فداء زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فاذكرت فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسها . فأمرت ان يسجى في قاعته حتى يحتفل بدفنه في اليوم الثاني ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكى عليه وتندبه . وإنما كذلك اذ دخلت عليها الخادم واخبرتها أن رجلاً من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته لما سمع بأمر مرضه فاخبرته خبر موته فصعق في مكانه

حزناً ووجداً ولا يزال عند باب المنزل مطر جالاً تدرى ما تسنع
 فى أمره . فأمرتها ان تذهب به الى غرفة الأضياف وأن تتولى
 شأنه حتى يستفيق . ثم عادت الى بكائها ونحيبها فلما مرّ الهزيع
 الثانى من الليل دخلت عليها الخادم مرة اخرى مرتاعة موهلة
 وهى تقول رحمتك واحسانك يا سيدتى فان ضيفنا يعالج من آلامه
 وأوجاعه عذاباً أليماً وقد حرت فى أمره وما أحسبه أن اغفلنا أمره
 ساعة واحدة الا هالكا . فراعها الخبر فقامت تتحامل على نفسها
 حتى وصلت الى غرفة المريض فرأته مسجى على سريره والمصباح
 عند رأسه فاقتربت ونظرت فى وجهه فرأت أبعد سطر خطته
 يد القدرة الإلهية فى لوح المقادير فتخيلت ان المصباح الذى أمامها
 قبس من ذلك النور المتلألئ فى ذلك الوجه المنير وتمثلت كأن
 أيدنه نعمة موسيقية محزنة ترن فى جوف الليل البهيم . فأنساعا
 الحزن على المريض المشرف الحزن على الفقيد الهالك وعناها أمره
 فلم تترك وسيلة من وسائل العلاج الا توسلت بها اليه حتى استفاق
 ونظر الى طبيببه الراكم بجانب سريره نظرة الشكر والثناء . ثم
 أنشأ يتحدثها عن نفسه كل شئ فعرفت من أمره كل ما كان يهمها
 ان تعلمه . فعرفت منسقط رأسه وصلته بزوجها وأنه فتى غريب فى
 قومه لأب له ولا أم ولا زوجة . وهنا أطرقت برهة طويلة عالجت
 فيها من هوا جس النفس ونوازعها ما عالجت ، ثم رفعت رأسها

وأمسكت يده وقالت ، انك قد نكلت أستاذك وأنا نكلت
 زوجي فأصبح ههنا واحداً فهل لك ان تكون عوناً لي وأكون عوناً
 لك على هذا الدهر الذي لم يترك لي ولا لك مساعداً ولا معيناً .
 فآلم بما في نفسها فابتسم لها ابتسامة الحزن والمضض وقال لها من
 لي يا سيدتي ان أكون عند ظنك بي وهذا المرض الذي يساورني
 وتمهدني من حين الى حين قد نقص على عيشي وأفسد على
 حياتي وقد أندرني الطيب باقتراب ساعة أجلى الا ان تدركني
 رحمة الله . ففتشى عن سعادتك عند غيري فأنت من بنات الجود
 ونا من أبناء الخلود . فقالت له انك ستميش وسأعالك له كان
 دواؤك بين سحري ونحري ، قال لا تصدقي يا سيدتي فانا عالم
 بدوائي وعالم بأنى لا استطيع السبيل اليه ، قالت وما دواؤك ؟
 فامتنع عليها برهة لا يجيبها فلما أعياه الحاحها قال حدثني ما يبني ان
 شفائي في أكل دماغ ميت ليومه . فلما علمت أن ذلك سيجزني
 اسجلت ان لا دواء لي ولا شفاء . فارتعدت وشجها ثم انزلت
 طويلاً ثم رفعت رأسها هادئة ساكنة وقالت انى لا أزال أقول
 لك انى سأعالك وان كان دواءك في ذهاب نفسي ثم أمرته ان
 يأخذ قسطه من الراحة وخرجت متسالة حتى وصلت الى غرفة
 سلاح زوجها فأخذت منها فأساً ثم مشت تحتلص خطوطها اختلاسا
 حتى وصلت الى غرفة الميت ففتحت الباب فدار على عقبه وصر

صريرا مزجا لجمدت في مكانها وقد امتلأ قلبها رعبا وخوفا وذهبت
بها الظنون كل مذهب ، ثم عادت الى سكونها فتقدمت لسانها
حتى دنت من السرير ورفعت الفأس وما كادت تهوى بها حتى
رأت الميت فاتجا عينيه ينظر اليها فسقطت الفأس من يدها والتفتت
وراءها فرأت الضيف والخدام واقفين وراءها يتضا حكان ففهمت
كل شيء

وهناك تقدم اليها زوجها وقال لها : اليست المروحة ياسيديتي
في يد تلك المرأة الغادرة أجمل من الفأس في يدك ؟ اليست التي
تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر دماغه قبل
نعيه . فصارت تنظر اليه نظرا غريبا ثم شققت شهقة كانت
فيها نفسها

الغد

عرفت أني فكرت ليلة الأمس فيما أكتب اليوم ، وعرفت
أني ممسك الساعة قلبي بين أصابعي ، وأن بين يدي صحيفة بيضاء
تسود قليلا قليلا ، كلما أجريت القلم فيها ، ولكني لا أعلم هل
يبلغ القلم مداه ، أو يكبو (١) دون غايته . وهل أستطيع ان أنعم
رسالي هذه أو يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها ،

(١) كبا يكبو سقط على وجهه

لأننى لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولأن المستقبل بيد الله
عرفت أنى لبست أثوابى فى الصباح وأنى لا أزال البسها
حتى الآن ، ولكنى لا أعلم هل أخلعها بيدي ، أو تخلعها يد الغاسل
الغد شبح مبهم يترأى للناس من بعيد فربما كان ملكار حيا
وربما كان شيطاناً رجياً ، بل ربما كان سحابة سوداء ، اذا هبت
عليها ريح باردة ، حللت اجزاءها ، وفرت ذراتها ، فاصبحت
كأنما هي عدم من الاعدام التى لم يسبقها وجود
الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه ^(١) ، وتصطبغ
أمواجه ^(٢) فما يدريك إن كان يحمل فى جوفه الدر والجوهر ،
أو الموت الاحمر

لقد غمض الغد عن العقول ودق شخصه عن الانظار ،
حتى لو ان انسانا رفع قدمه ليضعها لا يدرى أ يضعها على عتبة
القصر ، أو على حافة القبر

الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار تحوم حوله البصائر
وتسقطه ^(٣) العقول وتستدرجه الانظار ، فلا يبوح بسر من
أسراره الا اذا جادت الصخرة بالماء الزلال

(١) يعب عبابه يرتفع موجه

(٢) اصطخبت الامواج ارتفعت أصواتها

(٣) تسقط الخبر أخذه شيئاً فشيئاً

كأنى بالغد وهو كامن فى مكمنه ، رابض فى مجنمه ^(١) متلفع
ابتسامات الاستخفاف والازدراء.

يقول فى نفسه لوعلم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا
البانى أنه يبني للخراب ، وهذا الوالد أنه يلد للموت ، ما جمع الجامع
ولا بنى البانى ولا ولد الوالد ذال الانسان كل عقبة فى هذا العالم ،
فاتخذ نفقا ^(٢) فى الارض ، وصعد بسلم الى السماء ، وعقد ما بين
المشرق والمغرب بأسباب من حديد وخيوط من نحاس ^(٣)

انتقل بعقله الى العالم العلوى فعاش فى كواكبه ، وعرف
أغوارها وانجـادها وسهولها وبطاحها وعامرها وغامرها
ورطبها ويابسها

وضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ومسافات الاشعة ،
والموازين لوزن كرة الارض مجموعة ومتفرقة
غاص فى البحار فعرف أعماقها وفحص تربتها وأزعج سكانها
ونبش دفائنـها وسلبها كنوزها وغلبها على لآئها وجواهرها

(١) مجثم الطائر موضع جنومه أى تلبدته بالارض

(٢) النفق السرب فى الارض ينتهى بمخرج . يشير الى نفق القطارات

الحديديه فى بطن الارض فى بعض البلاد

(٣) الاسباب الحبال وكل ما يوصل بين الشئين . يشير الى اتصال

المعلاق بين أقطار الارض بسبب قضبان الحديد وأسلاك الكهرباء

نفذ من بين الأحجار والآكام^(١) إلى القرون الخالية فرأى أصحابها
وعرف كيف يعيشون وأين يسكنون ، وماذا يأكلون ويشربون
تسرب من نافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة
فعرّف النفوس وطبائعها . والعقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها
حتى كاد يسمع حديث النفس وديب المنى ، إخترق بذلك كل
حجاب وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد حاجزاً مقهوراً
لا يجرأ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ، لأنه باب الله . والله
لا يطلع على غيبه أحداً

أيها الشحيح المثلث بلثام الغيب ، هل لك أن ترفع عن وجهك
هذا اللثام قليلاً لنرى لمحة واحدة من لمحات وجهك ، أو لا ، فاقترب
منا علنا نستطيع أن نستشف خيالك من وراء هذا اللثام المسدول
فقد طارت قلوبنا شوقاً إليك ، وذابت أكيادنا رجداً عليك

أيها الغد ، ان لنا آمالاً كباراً وصغاراً ، وأسى حسناً وغير
حسان ، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وعبرنا عن أمانينا ماذا
صنعت بها ، أأذلتها وأهنتها ، أم كنت لها من المكرمين . لا لا ،
صن سرك في صدرك ، وابق لثامك على وجهك ولا تحدثنا حديثنا
واحداً عن آمالنا وأمانينا حتى لا تفجعنا فيها ، فتفجعنا في أرواحنا

(١) يشير إلى ما وقف عليه العلماء من الحقائق التاريخية بعد الاطلاع
على الآثار التاريخية

ونفوسنا فانما نحن أحياء بالآمال وان كانت باطلة . وسعداء بالاماني
وان كانت كاذبة

وليست حياة المرء الا أمانيا اذا هي ضاعت فالحياة على الاثر

كلماته

الادب الكاذب

كننا وكان الأدب حالا قائمة بالنفس تمنع صاحبها ان يقدم
على شر أو يحدث نفسه به او يكون عوناً لفاعليه عليه فان ساقته
اليه شهوة من شهوات النفس او نزوة من نزواتها وجد نفسه عند
غشيانه من المضيض والارتماض ما ينغص عليه عيشه ويقلق مضجعه
ويطيل سهره والمه فاصبحنا واذا الادب صورة من صور الجوارح
وعرض من الاعراض المتعلقة بحركات الانسان وسكناته لادخل
لها في جوهر نفسه ولا علاقة بينه وبين حسه ووجدانه فأكثر
الناس عند الناس ادبا واقومهم خلقا واطهرهم نفسا من لا يفي على
شرط ان يعد ومن يكذب على ان يكون كذبه سائفا مهذبا ومن
عملاً صدره موجدة وحقدا على ان يكون مبدسا ما ضحوك السن
ومن يسرق على ان يعبث بمواد القانون او يخدع القضاة عنها ومن
يغض الناس جميعا بلسانه ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية
وتلك الصور الجامدة من الحركات الجسمية التي تواضع عليها

الظرفاء في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة
وامثال ذلك مما يرجع العلم به غالبا الى صغر النفس واسعافها اكثر
مما يرجع الى علوها وكما لها

ذلك هو الادب الكاذب الذي أصبح في هذا المصـ
رأيا عاما يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم
ويعلمه الوالد لوالده والاستاذ لتلميذه ويقتتل عليه الناس
قتالا كما يقتتلون على اعز الاشياء وانفسها حتى تبدلت الصور
وانمكست الحقائق واصبح الرجل الصادق الذي لا يبعد الا اذا
علم من نفسه القدرة على الوفاء ولا يقول بلسانه الا ما يعتقد بقلبه
ولا يبش الا في وجه الرجل الشريف ولا يقطب الا في وجه الرجل
الساقط حتى لا يكون ظالما للأول ولا غاشيا للثاني أخرج الناس
بصدقه صدرا واضلهم به سبيلا لا يعلم ايكذب فيسخط ربه ويرضى
الكاذبين أم يصدق نفسه ويرضى الناس اجمعين ولا يعلم أيهم جر هذا
المالم الى عزلة موحشة يقضى فيها بقية حياته غريبا منفردا أم يبرز
للعيون فيموت هما وكدا

ان كان لهذه الامة أدب في سعادة الحياة وهنائها فلتعلم أن
لا سبيل لها الى ذلك الا اذا أدبت نفسها بأدب غير هذا
الادب الكاذب

الانتقاد

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها في اوربا فرقان احدهما يتعلق
بالناقد والاخر يتعلق بأثر النقد في الأذهان. اما الأول فهو ان
الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته وهنا ينتقده باعتبار
شخص مؤلفه أى انه لا ينتقد الكتاب بل صاحب الكتاب في
كتابه . واما الثانى وهو أثر طبيعى بالأول فهو ان للانتقاد هناك
أثر ظاهر فى الكتاب من حيث رواجه وكساده وشهرته وخموله
فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله وهنا ير الانتقاد بالأذهان
فلا يبقى من آثاره فيها الا أثر واحد وهو ان الكتاب جليل القدر سنى
القيمة ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل

لذلك رأيت كثيرا من علماء الناس لا يرضون عن انفسهم
الا اذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم بل رأيت من يتوسل الى احد
الناقدين ان ينتقد مؤلفه بل رأيت من يبلغ به الامر ان ينتقد كتابه
بنفسه بتوقيع منحول

أولئك هم الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا وأثر انتقاداتهم
فى أنفسنا . اما الذين يغضبهم الانتقاد ويخرج صدورهم فهم الذين
لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئا

الكتابة والشعر

انصح للشعراء الذين ليسوا في الطبقة الاولى من الشعر ولا هم في طريقها ان يعدلوا عنه الى الكتابة لان الكاتب يطرب ان كان أولا ويحسن ان كان ثانيا

أما الشاعر فهو المغنى المطرب الذى يحمل من لسانه ريشة رقيقة يضرب بها على اوتار القلوب فيضحكها ويميتها او يحييها فهو ان لم يكن فى الطبقة الاولى فتوسطه وتدليه سواء . فان اراد الشعراء ان يعرفوا منزلتهم التى ينزلونها من درجات الشعر فسبيلهم الى ذلك الذى لا سبيل غيره ان ينشروا على صفحات الجرائد نقشات افلامهم متناكرين ثم يعيشوا وراءها متسممين ليعرفوا ماذا يقول الأذباء عنها . فان بدا لهم ان يعتمدوا على انفسهم او على ثناء السامعين عليهم وابتسامات المبتسمين اليهم فليعلموا ان المرء مفتون بشعره وان الشعر هو الفن الوحيد الذى تتسع فيه المسافة دائماً بين عقيدة المرء فى نفسه والواقع من امره وانه لا يوجد فى هذا البلد واحد يستطيع ان يقول للمسىء فى وجهه انك قد اسأت او انك قليل الاحسان

علاج التعصب الديني

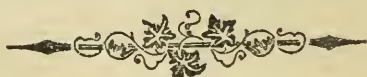
مرت بي ساعة من ساعات حياتي لا أزال اذكرها ولا ازال استحي من ذكرها حتي اليوم ابغضت فيها اليسوعي ليسوعيته والموسوي لموسويته والوثني لوثنيته ثم الهمني الله ان اعود الى نفسي و كنت عودتها ان اعود اليها كلما وقفت في موقف شبهة واشرفت على مراقب دينية وثاني اني ما كنت مساملا لاني استعرضت الاديان جميعها بين يدي وقلبت فيها وجوه الراي حتى اخذت لنفسى المأخذ الذي اتعصب به ولا لاني قرأت الادلة والبراهين التي يوردها علماء الكلام على صحة قواعد الاسلام وأصوله ثم اتخذتها مقدمة لتلك النتيجة التي أنا عليها اليوم بل لان أبي كان مسامفا ورثني دينه ولان أهلي كانوا مسلمين فغذوني بتلك القواعد والأصول كلمة كلمة كما غذوني باللبن جرعة جرعة حتى نشأت مساملا بعد التربية والتعهد لا بعد النظر والاستدلال

أما تلك المعلومات التي حصلت عليها بعد ذلك من النظر في العلوم الكلامية واستطعت أن أقيم بها البرهان على صحة دين الاسلام وأنه خير الاديان وأقومها طريقا وأهداها سبيلا فتلك نتيجة من نتائج التدين لا مقامة من مقدماته فلو ان الله تعالى

كان كتب لابي في لوح مقاديره أن يكون سبيله غير هذا السبيل
وطريقه غير تلك الطريق فما كان لي بد من ان اترسم خطواته واسير
على آثاره وأنظر الى ديني بالعين التي أنظر بها اليوم الى أديان الناس
ولم أزل اردد ذلك الرأي في نفسي وأتعهد بالنظر في غدواتي وروحاتي
ومصباحي وممساي حتى اطمانت نفسي الى القول بأن الدين تربية
وخلق لا مذهب واعتقاد وان أدلة الاديان وبراهينها إنما هي آثار
تأتي بعدها لا مؤثرات تتقدم عليها. ولولا ذلك لرأينا كثيرًا من
أبناء المسامين مثلاً مسيحيين وأبناء اليهود بوذيين وذلك مالا
نراه إلا قليلاً عند ما يرد على الفرائض الدينية مؤثر من
المؤثرات الخارجية كتلك التي ترد على أصحاب النفوس الضعيفة
فتزعزع أخلاقهم من مواضعها وتمشي بها في غير سبيلها فقلت
أي مانع يمنعني من القول بأن لليسوعى الذى يتمسك ييسوعيته
ويشدد فيها شأنًا فى ذلك التمسك مثل شأنى وسبيلها فى هذا
التشدد مثل سبيلى وانه لم يكن مسيحياً لانه غي أو جاهل أو
ساقط أو سافل أو انه أراد بانتحاله هذا الدين مغايطى أو معاندتى
أو الزراية بالدين الذى أدين به ولكنه ولد فى بيئة غير التى
ولدت . ونشأ فى أمة غير التى نشأت فى كان كان وكنت
كما كنت . تجمعنا جامعة الانسانية والتعقل والادراك
والفهم ولا يفرقنا ذلك الاختلاف فى المذهب إلا كما يفرق

أحدنا عن صاحبه اختلاف ما بيننا في المطعم والمشرب
والملبس والمقام

هنالك أصبحت انسانا غير ذلك الانسان الاول أحب
الرجل الفاضل ولا أعتقد أن الفضيلة وقف على المسلمين وأبغض
الرجل الدنيء ولا أعتقد أن للدناءة صلة بمسيحية المسيحيين او
موسوية الموسويين : قلت لو أن الناس جميعاً علموا من أمر
الاديان ومنشئها مثل ما علمت لكانت العقائد الدينية وهي الخير
لحض شرا على العباد من الجحود والاحاد



فارقني ولم تودعني فاغفرت لك ذلك ، اما اليوم وقد اصبحت على باب القبر فلا اغتفر لك أن لا تأتي اليّ لتودعني الوداع الأخير .
 فرميت بالكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعا فتعلقت
 الخادم بثوبي وقالت أين تريد ياسيدي ، قلت انها مريضة ولا بد لي من المصير اليها ، قالت لا تفعل ياسيدي فقد سبقك القضاء اليها هنالك شعرت ان قلبي قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم له مكانا ثم دارت بي الارض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لأشعر بشيء مما حولي فلم افق الا بعد حين ففتحت عيني فاذا الليل قد اظلمني واذا الخادم لا تزال بجانب تبكي وتنتحب فدنوت منها وقلت : ايها المرأة احق ما تقولين ، قالت نعم ، قلت قصي على كل شيء فقالت

ان ابنة عمك لم تنتفع بنفسها ياسيدي بعد فراقك فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي كنت حملتها اليك من زوجة عمك فلم تزد على قولها « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ، إنهم لا يعلمون من امره ولا من امرى شيئا » ثم لم يجر ذكرك عليّ لسانها بعد ذلك بخير ولا شر كأنما كانت تعالج في نفسها ألما ممضا ، وماهي الا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها الى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفاأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق

ثم رها ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبيل^(١) يوماً حتى تنفكس
أياماً فراغ أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس
والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك فلم تدع طيبها ولا
عائداً إلا فرغت إليه في أمرها فأغنى العائد ولا الطيب وأصبحت
الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً

فبينما أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليالٍ إذ شعرت بها تحرك
في مضجعها فدنوت منها فأشارت إلى أن آخذ يدها ففعلت فاستوت
جالسة وقالت في أي ساعة نحن من ساعات الليل ؟ قلت في الهزيع
الآخر منه ، قالت أنت وحدك هنا ؟ قلت نعم فقد هجع أهل
البيت جميعاً قالت ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآر ؟ فعجبت
لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت بلى يا سيدتي أعلم مكانه ، وما
كنت أعلم شيئاً ولكنني أشفق على هذا الخيط الرقيق الباقي في
يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط
أجلها ، فقالت ألا تستطيعين أن تحملي إليه كتاباً مني من حيث لا
يعلم أحد بشأني ؟ قلت لا أحب إلى من ذلك يا سيدتي ، فأشارت
أن آتيها بمحبرها فكتبتها بها فكتبت إليك هذا الكتاب الذي
تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسألك الناس عنك في كل مكان
وأصفح وجوه الغادين والرائحين في كل سبيل علاني أراك فلم

(١) أبل من مرضه برى منه

أنين الوالهة الشكلى ، أو هائما في غرفته يذرع أرضها ، ويطوف
بأركانها ، حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسیه باکیا منتجبا ،
فأتوجع له وأبکی لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أداخله مداخله الصديق
لصديقه واستبثته (١) ذات نفسه وأشركه في همه لولا أنني كرهت
أن أخافه بما لا يحب وأن أهجم منه على سرّ ربما كان يؤثر الأبقاء
عليه في صدره وإن يكتمه الناس جميعا ، حتى أشرفت عليه ليلة
أمس بعد هدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة فظننت
أنه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنه
ضعيفة مستطيلة فازعجني مسممها وخيل الى وهى صادرة من قرارة
نفسه كأنى أسمع رنينها في أعماق قاي ، وقلت ان الفتى مريض
ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه وقد بلغ الأمر مبلغ الجذ فلا بد
لى من المصير إليه ، فتقدمت الى خادمى (٢) أن يتقدمنى بمصباح
ثم صعدت إليه حتى بلغت باب غرفته فأدركنى من الوحشة عند
دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر يحاول أن يهبط إليه ليوذع
ساكنه الوداع الأخير ، ثم دخلت ففتحت عينيّه عند ما أحس
بى وكأنما كان ذاهلا أو مستغرقا فأدهشه أن يرى بين يديه
مصباحا مضيئا ورجلا لا يعرفه ، فلبث شاخصا الى هنيهة

(١) استبثته السرطلب إليه ان يثبتني إياه

(٢) تقدم الى فلان بكذا أمره به

لا ينطق ولا يعطِف (١) فاقتربتُ من فراشه وجلست بجانبه
وقلت أنا جارك في هذا المنزل وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك
علاجاً شديداً وعلمتُ أنك وحدك في هذه الغرفة فعنانى أمرك
فجئتُك عانى أستطيع أن أكون عوناً لك على شأنك ، فهل أنت
مريض ! فرفع يده ببطء فوضعها على جبهته فوضعتُ يدي حيث
أشار فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت انهُ محموم ثم أمررت
نظري على جسمه فإذا خيال سارٍ لا يكاد يتبينه رائيهِ ، وإذا قميص
فضفاض (٢) من الجلد يموج فيه بدنه موجاً ، فأمرت الخادم أن
يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمي فجرعته منه بعض
قطرات فاستفاق قليلاً ونظر إلى نظرة عذبة صافية وقال شكراً
لك ، فقلت ما شكركك أيها الأخ ؟ قال لا أشكوك شيئاً ، قلت
فهل مرَّ بك زمن طويل على حالك هذه ؟ قال لا أعلم ، قلت أنت
في حاجة إلى الطبيب فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في
أمرك ؟ فتشهد طويلاً ونظر إلى نظرة دامعة وقال : انما يبكي على
الطبيب من يؤثر الحياة على الموت : ثم أغمض عينيه وعاد إلى
ذهوله واستغراقه ، فلم أجد بداً من دعاء الطبيب رضى ذلك أم
أبي فدعوته فجاء متأففاً متذمراً يشكو من حيث يعلم أنى أسمع

(١) طرف فلان بصره أطبق أحد جفنيه على الآخر

(٢) الفضفاض الواسع

شكواه لزعاجه من مرقدہ وتجشيمه خوض الازقة المظلمة في
 الليالى الباردة فلم أحفل بأمره لأننى أعلم طريق الاعتذار إليه ،
 ففحص المريض وهمس فى أذنى قائلاً : ان عليك ياسيدى مذهب
 على الخطر ولا أحسب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان فى علم
 الله ما لا نعلم ، وجلس ناحية يكتب ذلك الأمر الذى يمسره
 الأطباء الى عمالهم الصيادلة ان يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة
 الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعد ما أحسنت الاعتذار اليه فأحضرت
 الدواء وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما
 بين الطرفين استقيه الدواء مرة وأبكى عليه أخرى حتى انبثق نور
 الفجر فاستفاد ودار بعينيه حول قرانه حتى رآنى فقال انت هنا ؟
 قلت نعم ، أرجو ان تكون أحسن حالا من قبل ، قال أرجو ان
 اكون كذلك ، قلت هل تأذن لى ياسيدى أن أسألك من أنت ،
 وما مقامك وحدك فى هذا المكان ، وهل أنت غريب عن هذا
 البلد أو أنت من أهليه ، وهل تشكو داءً ظاهراً أو همماً باطناً ؟
 قال أشكوهما معاً ، قلت فهل لك أن تحدثنى بشأنك وتفضى الى
 بهمك كما يفضى الصديق الى صديقه فقد أصبحت معنياً بأمرك
 عنايتك بنفسك ؟ قال هل تمدنى بكتمان أمرى ان قسم الله لى
 الحياة وبتنفيذ وصيتى ان كانت الأخرى ؟ قلت نعم ، قال قد
 وثقت بوعدك فان من يحمل فى صدره قلباً شريفاً مثل قلبك لا

يكون كذاباً ولا خائناً

أنا فلان بن فلان مات أبى منذ عهد بعيد وتركنى فى السادسة من عمرى فقيراً معدماً لا أملك من متاع الدنيا شيئاً فكفّلنى عمى فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأوسمهم برأ واحساناً، وأكثرهم عطاءً وحناناً، فأزلى من نفسه منزلة لم ينزلها أحداً من قبلى غير ابنته الصغيرة وكانت فى عمرى أو أصغر منى قليلاً، وكان سرّه أن يرى لها بجانبها أخاً بعد ماتنى ذلك على الله زماناً طويلاً فلم يدرك أمنيته فعنى بى عنايته بها وأرسلنا الى المدرسة فى يوم واحد، فأنسبت بها أنس الأخ بأخته وأحببتها حباً شديداً ووجدت فى عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الفضاضة التى كانت لا تزال تعاود نفسى بعد فقد أبوى من حين الى حين فكان لا يرانا الرأى إلا ذاهبين الى المدرسة أو عائدين منها أو لاعبين فى فناء المنزل أو هائمين فى حديقته أو مجتمعين فى غرفة المطالعة او متحدّثين فى غرفة النوم حتى جاء يوم حجابها فلزمت منزلها واستمررت فى دراستى

ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها عقداً لا يحله الا ريب المنون، إفكنت لا أجد لذة العيش إلا بجوارها، ولا أرى نور السعادة الا فى فجر ابتساماتها، ولا اوتر على ساعة أقضيها بجانبها جميع لذات المعيش ومسرّات الحياة، وما كنت أشاء أن أرى خصلة من خصال

الخير في فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو عفة أو شرف
أو وفاء إلا وجدتها فيها

وإني أستطيع وأنا في هذه الظلمة الحالككة من الهموم
والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من
السعادة التي كانت تظللنا أيام طفولتنا معاً فتشرق لها نفسانا
إشراق الراح في كآسها، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت
مراح لذاتنا، ومسرح أمانينا، وأحلامنا، كأنها حاضرة بين يدي
أري لألامنا، وللمعان حصبائها، وأفانين أشجارها، وألوان
أزهارها، وتلك المقاعد الحجرية التي كنا نتخذها منها فنجتمع فوقها
على حديث نتجاذبه، أو طافة نؤلف بين أزهارها، أو كتاب
نقرأه معاً، أو رسم نشترك في النظر فيه، وتلك الحائل الخضراء
التي كنا نفىء إلى ظلها كلما فرغنا من شوط من أشواط
المسابقة فنشمر بما تشمر به أفراخ الطير اللابثة إلى أحضان أمهاتها
وتلك الحفائر الجوفاء التي كنا نحتفرها بأيدينا على شواطئ الجدول
والغدران فنملؤها ماءً ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي وضعناها
فيها بأيدينا فنطرب إن ظفرتنا بشيء منها كأننا ظفرتنا بغيم جديد
وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيها عصافيرنا ثم
نقضى الساعات الطوال بجانبها نحب بمنظرها ومنظر مناقيرها
الخضراء وهي تحسو الماء مرة وتلقط الحب أخرى، ونناديها

بأسمائها التي سمينها بها فاذا سمعنا صغيرها ظننا انها تلبى نداءنا
ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمي في نفسي ودا
واخاء ، او حباً وغراماً ، ولكنني أعلم انه ان كان حباً فقد كان حباً
بلا أمل ولا رجاء ، فما قلت لها يوماً اني أحبك لأنني كنت أضن
بها وهي ابنة عمي ورفيقة صباى أن أكون أول فاتح لهذا الجرح
الأسيم في قلبها ، ولا قدرتُ في نفسي يوماً من الأيام أن أصل
أسباب حياتي بأسباب حياتها لأنني كنت أعلم ان أبويها لا يسخوأن
على فتى بائس فقير مثلي ، ولا حاولتُ في ساعة من الساعات ان
أتسقط (١) منها ما يطعم في مثله المحبون المتسقطون لأنني كنت أجعلها
عن ان أنزل بها الى مثل ذلك ، ولا فكرت يوماً ان أستشف من
وراء نظراتها خبيثة نفسها لا أعلم أى المنزلتين أنزلها من قلبها ،
منزلة الانخ او منزلة الحبيب ، فأستعين بإرادتها لمن
كانت الأخرى على إرادة أبويها ، بل كان حبي لها حب
الراهب المتبتل لصورة المذرة المائلة بين يديه في صومعته يعبدها
ولا يدنو منها

ولم يزل هذا شأنى وشأنها حتى نزلت بعمى نازلة من المرض
القاتل لم تنشب (٢) ان ذهبت به الى جوار ربه ، وكان آخر ما

(١) تسقط فلان الخبر أخذه شيئاً بعد شيء

(٢) لم تنشب لم تلبث

نطق به في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته وكان يحسن بها ذلك
لقد أعجاني الموت عن النظر في شأن هذا العلام فكوني له أمًّا كما
كنتُ له أبا وأوصيك أن لا يفقد مني بعد موتي إلا شخصي
فما هو إلا أن مرَّت أيام الحداد حتى رأيت وجهها غير الوجوه
ونظرات غير النظرات وحالا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل
فتدخلني الهم واليأس ووقع في نفسي للمرة الأولى في حياة
أننى قد أصبحت في هذا المنزل غريبًا ، وفي هذا العالم يتيمًا ،
فانى لجالس في غرفتي صبيحة يوم إذ دخلت على الخادم وكانت
امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمت إلى باكية منكسرة
وقالت : قد امرتنى سـيـدتي زوجة عمك أن أقول لك ياسيدي
إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب ، وإنها ترى أن في
بقائك بجانبها بعد موت أبيها ما يريبها عند خطيبها ، وإنها تريد
أن تتخذ للزوجين مسكنًا هذا الجناح الذي تسكنه من القصر ،
فهى ترى لك أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين
منازلها تقوم لك هى بشأنه وشأن نفقاتك فيه .

فكانما عمدت إلى سهم مريش فأصابته كبدى إلا أننى
تماسكت قليلا ريثما قلت لها سأفعل ذلك إن شاء الله فانصرفت
لشأنها فخلوت بنفسى ساعة من الزمان اطلقت فيها السبيل لعبرتي
ماشاء الله أن اطلقها حتى جاء الليل فعمدت إلى حقيبتي فأودعتها

ثيابي وكتبي وقلت

« قد كان كل ما اسعده في هذه الحياة ان اعيش بجانب ذلك
الانسان الذي احببته واحببت نفسي من اجله وقد حيل بيني وبينه
فلا آسف على شيء بعده »

ثم انسللت من المنزل انسلالا من حيث لا يشعر احد
بمكاني ولم اتزود منها قبل الرحيل غير نظرة واحدة القيتها عليها من
وراء كتفها^(١) وهي نائمة في سريرها فكانت آخر عهدي بها
لعمرك ما فارقت بغداد عن قلبي لو أنا وجدنا من فراق لها بدنا
كفى حزنا زرحتم لم استطع لها وداعا ولم احدث بساكنها عهدا

وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه برهة من الزمان
فراق آدم جنته وخرجت منه شريداً طريداً حائراً ملتاعاً قد
اضطلمحت على مختلفات الهموم والاحزان . فراق لالقاء بعده
وفقر لاسادخلته . وغربة لأجد عليها من أحد من الناس مواسيا
ولا معيناً

وكانت معي صبا^(٢) من مال قد بقيت في يدي من آثار
تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة في هذا السطح مسكناً

(١) السكة الستر الرقيق

(٢) الصبا بة البقية من الشيء

فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فازممت الرحيل الى حيث أجد
 في فضاء الله ومنفسح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها ،
 فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لا أهبط ببلدة حتى
 تنازعني نفسي الى أخرى ولا تطالع على الشمس في مكان حتى
 تغرب عني في غيره حتى شعرت في آخر الامر بسكون في نفسي
 يشبه سكون الدمع المعلق في محاجر العين لا يفيض ولا يفيض ،
 فقمعت بذلك وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت
 وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم منفردا كمجتمع وغائبا
 كحاضر وبعيدا كقريب وان ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه
 وان استعين على نسيان الماضي بالجنباب آثاره ومظاهره فازمت
 غرقتي ومدرستي لا اترك احدهما الا الى الاخرى ولم يبق من اثر
 لذلك العهد القديم في نفسي الا نزوات تعاود قلبي من حين الى حين
 فاستعين عليها بقطرات من الدمع اسكبها من جفني في خلوتي من
 حيث لا يعلم الا الله ما بي فأجد برد الراحة في صدري
 لبثت على ذلك برهة طويلة حتي عدت بالامس الى تلك
 الفضلة التي كانت في يدي من المال فاذا هي ناضبة او موشكة
 وكنت مأخوذا بان أهيس نفسي عيشا مستقبلا وان أؤدي
 للمدرسة قسطا من اقساطها والمدرسة في هذا البلد حانوت لا تباع
 فيه الساع نسيئة والعلم في هذه الأمة مرتزق منه العلماء لا منحة

ينجها المحسنون فاهممتى وعلمت انى مشرف على الخطر ولا اعرف
سبيلا الى القوت بوجه ولا حيلة فعمدت الى كتيبى فاستبقيت منها
مالا غنى لى عنه وحملت سائرها ^(١) فذهبت به الى سوق الوراقين
فمرضته هناك يوما كاملا فلم اجد من يبلغ بى فى المساومة نصف
ثمنه فعدت به حزينا منكسرا وما على وجه الارض أحد أذل منى
ولا أشقى

فلما بلغت باب المنزل رأيت فى فنائه امرأة تسأل اهل البيت
عنى فتبينتها فاذا هي الخادم التي كانت تخدمنى فى منزل عمى فقلت
فلانة ؟ قالت نعم ، قلت ماذا تريدن ، قالت لى اليك كلمة فائذن لى
بها ، فصعدت بها الى غرفتى فلما خلونا قلت هات ، قالت مرت
بى ثلاثة ايام افتش عنك فى كل مكان فلا اجد من يدلنى عليك
حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك ، ثم انفجرت باكية بصوت
عال فراعنى بكأؤها وخفت ان يكون قد حل بالبيت الذى احبسه
بأس فقلت ما بكأوك ، قالت اما تعلم شيئا من اخبار بيت عمك ، قلت
لا فما اخباره ، فمدت يدها الى ردائها واخرجت من اضعافه ^(٢)
كتابا مقفلا فتناولته منها ففضضت غلافه فاذا هو بخط ابنة عمى
فقرات فيه هذه الكلمة التي لا ازال احفظها حتى الساعة « انك

(١) سائر الشئ باقية

(٢) اضعايف الثوب اثنائوه

فارقني ولم تودعني فاعتفرت لك ذلك ، اما اليوم وقد اصبحت على باب القبر فلا اغتفر لك أن لا تأثني الى اتودعني الوداع الأخير » فرميت بالكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعا فتعلقت الخادم بثوبي وقالت أين تريد ياسيدي ، قلت انها مريضة ولا بد لي من المصير اليها ، قالت لا تفعل ياسيدي فقد سبقك القضاء اليها هنالك شعرت ان قلبي قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم له مكانا ثم دارت بي الارض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولى فلم افق الا بعد حين ففتحت عيني فاذا الليل قد اظلمني واذا الخادم لا تزال بجاني تبكي وتنحب فدنوت منها وقلت : ايتها المرأة احق ما تقولين ، قالت نعم ، قلت قصي على كل شيء فقالت

ان ابنة عمك لم تنتفع بنفسها ياسيدي بعد فراقك فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي كنت حملتها اليك من زوجة عمك فلم تزد على قولها « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ، انهم لا يعلمون من امره ولا من امرى شيئا » ثم لم يجر ذكرك على لسانها بعد ذلك بخير ولا شر كأنما كانت تعالج في نفسها ألما ممضا ، وماهي الا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها الى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الالبتسامات العذبة التي كانت لا تفارق

تفرها ثم سقظت على فراشها مريضة لا تبيل^(١) يوماً حتى تنفكس
أياماً فراع أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس
والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك فلم تدع طبيباً ولا
عائداً إلا فرغت إليه في أمرها فإنا أغنى العائدين ولا الطبيب وأصبحت
الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً

فبينما أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليالٍ إذ شعرت بها تتحرك
في مصجعها فدنوت منها فأشارت إلىَّ أن آخذ يدها ففعلت فاستوت
جالسة وقالت في أي ساعة نحن من ساعات الليل ؟ قلت في الهزيع
الأخير منه ، قالت أنت وحدك هنا ؟ قلت نعم فقد هجع أهل
البيت جميعاً قالت ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآر ؟ فعميت
لكلمة لم أسمعهما منها قبل اليوم وقلت بلى ياسيديتي أعلم مكانه ، وما
كنت أعلم شيئاً ولكنني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في
يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط
أجلها ، فقالت ألا تستطيعين أن تحملي إليه كتاباً مني من حيث لا
يعلم أحد بشأني ؟ قلت لا أحب إلىَّ من ذلك ياسيديتي ، فأشارت
أن أتيها بحجرها فجئت بها فكتبت إليك هذا الكتاب الذي
تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسألك الناس عنك في كل مكان
وأتصفح وجوه الغادين والرائحين في كل سبيل علاني أراك فلم

(١) أبل من مرضه برىء منه

أعرف الطريق اليك ، حتى انحدرت الشمس الى مغربها فعدت
الى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت الناعية
فعلمت ان السهم قد أصاب المقتل وان تلك الوردة الناضرة التي
كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت اليوم آخر ورقة من ورقاتها
خزنت عليها حزن الثاكل على ولدها وما رثي مثل يومها يوم كان
اكثر باكية وباكياً

وكان أكبر ما أهمني من أمرها ان كل ما كانت ترجوه في
آخر يوم من أيام حياتها ان تراك ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها
فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ولم أزل أطلب السبيل اليك
حتى وجدتك

فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت فما انفردت
بنفسي حتى شعرت ان سحابة سوداء تهبط فوق عيني شيئاً فشيئاً
حتى احتجب عن ناظري كل شيء ثم لا أعلم ماذا تم لي بعد ذلك
حتى رأيتك



وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر زفرة خالت أن
كبدته قد ارفضت^(١) وأن هذه أفلاذها ، فدنوت منه وقلت ما بك
ياسيدي ؟ قال بي أني أطلب دمية واحدة انقرج بها مما أنا فيه فلا أجدها

(١) ارفض الشيء تفرق وترشش

ثم سكت برهة طويلة فشعرت انه يهمهم ببعض كلمات
فأصغيت اليه فأذا هو يقول

« اللهم انك تعلم انى غريب فى هذه الدار لا سند لى فيها ولا
عصد ، وانى فقير لأملك من متاع الدنيا ما أعود به على نفسى ، وانى
عاجز مستعصف لأعرف السبيل الى باب من ابواب الرزق فى
هذه الحياة بوجه ولا حيلة ، وان الضربة التى أصابت قلبى قد سحقته
سحقاً فلم يبق فيه حتى الدماء،^(١)

واننى استحييك ان أمد يدى الى هذه النفس التى أودعتها
بيدك بين جنبيّ فأنتزعها من مكانها وألقى بها فى وجهك ساخطاً
ناقماً ، فامدد انت يدك اليها واستردّ وديعتك اليك وانقلها الى دار
كرامتك فنعيم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك »

ثم أمسك رأسه بيديه كأنما يحاول ان يحبس عنه الفرار وقال
بصوت ضعيف خافت : أشعر برأسى يحترق احترافاً وبقلى
يذوب ذوباناً ولا أحسبني باقياً على هذا ، فهل تمدنى أن تدفنى معها
فى قبرها وتدفن معى كتابها ان قضى الله فى قضاءه ؟ قلت نعم
وأسأل الله لك السلامة ، قال الآن أموت طيب النفس عن
كل شىء

(١) ارفض الشىء تفرق وترشش

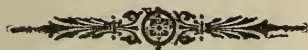
(٢) الدماء بقيمة النفس

ثم انتفض انتفاضة خرجت نفسه فيها وهو يقول (أحسنت
الى حيا فأحسن الى ميتا)



لقد هوّن وجدى على هذا البائس المسكين انى استطمت
تنفيذ وصيته فدفنته حيث أراد ودفنت معه تلك الرسالة التى
دعته ابنة عمه فيها ان يوافيها فعجز عن ان يلبى نداءها حيا ،
فلباها ميتا .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذاك الصديقان الوفيان
اللذان ضاق بهما فى حياتهما فضاء القصر ، فوسعهما بعد موتهما
فضاء القبر



العقاب

« موضوعة ^(١) »

رأيتُ فيما يرى النائمُ في ليلة من ليالى الصيف الماضى كأنى
هبطت مدينة كبرى لا علم لى باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا
بالمصر الذي هى فيه فمشيتُ فى طرقها بضع ساعات فرأيت
أجناساً من البشر لا عدد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر
لها خيل الى أن الدنيا قد استحالت الى مدينة وان الذى أراه بين
يدى العالم بأجمعه من أدناه الى أقصاه فلم أزل أتقل من مكان الى
مكان وأدأول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير الى
بنية عظيمة لم أر بين البنى أعظم منها شأنًا ولا أهول منظرًا وقد
ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ومشى فى أفنيتها وأبهاها
طوائف من الجند يحظرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوبًا فسألت
بعض الواقفين ما هذه البنية وما هذا الجمع المحتشد على بابها فعلمت
انها قصر الامير^١ وان اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل فى
خصوماتهم ، وما هي الا ساعة حتى نادى مناد فى الناس ان قد

(١) وضعت هذه القصة على نسق قصة أمريكية اسمها صراخ القبور

اجتمع مجلس القضاء فشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم وجلست حيث انتهى بي المجلس فرأيت الأمير جالساً على كرسي من ذهب يتلأأ في وسط الفناء تلاًؤ الشمس في دارتها وقد جلس على يمينه رجل يلبس مسوحاً^(١) وعلى يساره آخر يلبس طيلساناً فسألت عنهما فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير والذي على يساره قاضي المدينة ورأيت أنه ينظر في ورقة بيضاء بين يديه فأكب عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليؤت بالمجرمين ، ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء فتكشف عن مثل حاق الليث منظرًا وزئيراً وخرج منه الأعوان يقتادون شيخاً هرماً تسكاد تسلمه قوائمه ضعفاً ووهناً فسأل الأمير ماجريته فقال الكاهن أنه لص دخل الدير فسرق منه غرارة^(٢) من غرائر الدقيق المخصصة للفقراء والمساكين ، فضج الناس ضجيجاً عالياً وصاحوا ويل للمجرم الأثيم أيسرق مال الله في بيت الله ؟ ثم نودى بالشهود فشهد عليه رهبان الدير فتسار الأمير مع الكاهن برهة ثم قال يقاد المجرم الى ساحة الموت فتقطع يميناه ثم يسراه ثم بقية أطرافه ثم يقطع رأسه ويترك طعاماً للطير الغادى والوحش الساغب ؛ فجنا الشيخ بين يدي الأمير ومد اليه يده الضعيفة المرتعشة كأنما يحاول أن يسترحمه

(١) المسوح جمع مسح بالكسر وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان
(٢) الغرارة الجوالق

فغضب الأعوان على فمه واحتملوه الى محبسه ، ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفا وفرقا حتى وقفوا به بين يدي الأمير فسأل ماجريته فقالوا انه قاتل ذهب أحد قواد الأمير الى قريته لجمع الضرائب فطالبه باداء ما عليه من المال فأبى وتوقع في إباطه فأنهره القائد فاحتدم غيظا وجرّد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته فصاح الناس باللفظاعة والهول ، إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه ، ثم جيء بأعوان القائد المقتول فأدوا شهادتهم فأطرق الأمير برهة ، ثم رفع رأسه وقال يقاد المجرم الى مساحة الموت فيصالب على جذع شجرة ثم تقصد عروقه كلها حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم ، فصرخ الغلام صرخة حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه الى السجن ، وما لبثوا ان عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسنا وبهاء لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجى فوق جبينها فقال الأمير ما جريمتها فقال القاضي انها امرأة زانية دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم ، فهاج الناس واضطربوا واهتفوا القتل القتل الرجم الرجم انها الجريمة العظيمة والخيانة الكبرى ، فقال الأمير أين شاهدها ، فدخل قريبها الذى كشف أمرها فشهد عليها ، فهمس القاضي فى أذن

الامير ساعة ثم قال الامير تؤخذ الفتاة الى ساحة الموت فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم . فملل الناس وكبروا إعجابا بمثل الامير وحزمه وإكبار أسطوته وقوته وهتفوا له والكانه وقاضيه بالدعاء ، ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ومضوا لسبيلهم فرحين مقتبطين وخرجت على أثرهم حزينا مكتئبا أفكر في هذه المحاكمة الغريبة التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصوصهم ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم وأعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة وغلوهم في تقديسها وإعظامها وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلا كان أو ظالما رحمة أو قسوة وأردد في نفسي هذه الكلمات

ليت شعري ألا يوجد بين هؤلاء الشائرين على هؤلاء المساكين لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم وينظر الى جرائمهم بالمين التي ينظر بها الى جريمته ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم أمام قضاة مثل قضائهم ؟

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية . والقاتل إنما قتل دفاعا عن عرضه أو ماله . واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعة أهل بيته ؟

ألم يرتكب الامير جريمة القتل مرة واحدة في حياته فيرحم
القائلين عند النظر في جرائمهم ؟

ألم يسقط في يد الكاهن يوماً من الايام دينار من غير حله
فتخف لوعة حزنه على الفرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه
لذلك ؟

ألم تزل قدم القاضي ساعة واحدة فيما مر به من أيام حياته
فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والسافطات ؟

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يحتكمون في
أرواح العباد وأموالهم كما يشؤون ، ويقسمون السعود والنجوس
بين البشر كما يريدون ؟

انهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا أملاك مطهرين ، ولا
يحملون في أيديهم عهداً عن الله تعالى يكل اليهم فيه أمر عباده
ويضع في أيديهم حظوظهم وأنصبتهم ، فبأى حق يجلسون هذه
الجلسة على هذه المقاعد ؟ ومن أى قوة شرعية يستمدون هذه
السلطة التي يستأثرون بها من دون الناس جميعاً .

من هو الامير . أليس المستبد الاعظم في الامة أو سلالة
المستبد الاعظم الذي استطاع بقوته وقهره ان يتخذ من أعناق
الناس وكواهلهم سائماً يصعد منها إلى العرش الذي يجلس عليه :
من هو الكاهن : أليس أبرع الناس وامهرهم في استقلال

النفوس الضعيفة والقلوب المريضة :

من هو القاضى . اليس أقدر الناس على الباس الحق صورة

الباطل والباطل صورة الحق :

ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخياراً صالحين .

أو أبراراً طاهرين

عجيب جداً أن يقتل الرجلُ الرجلَ لغضبة يغضبها لعرضه

أو شرفه فيسمى مجرمًا ، فإذا قتل الأميرُ القتالَ سُمى عادلاً ،

وإن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بهاعيا له فيسمى لصًا

فإذا أمر القاضى بقطع أطرافه والتمثيل به سُمى حازمًا ، وأن تسقط

المرأة سقطتها ربما ساقها إليها خدعة من خدع الرجال أو نزغة من

نزغات الشيطان فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها

فإذا رآوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة

الرجم من كل صوب أنسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومصيرها

كما أن النار لا تطفىء النار ، وشارب السم لا يعالج بشربه مرة

أخرى ، ومقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ، كذلك لا

يعالج الشر بالشر ولا يعجى الشقاء فى هذه الدنيا بالشقاء

ولم أزل أحدث نفسى بمثل هذا الحديث حتى أقبل الليل فمرت

بساحة مظلمة موحشة تتطاير فى جوها أسراب من الطير غادية

رائحة فاخترقها حتى بلغت أبعد بقاعها عن أطرافها فرأيت منظرًا

هائلا لا يزال أثره عالقا بنفسى حتى اليوم
 رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لأرأس لها ولا أطراف،
 ثم رأيت رأسه وأطرافه مبهثرة حواليه كأنها نوادب يندب به حاسرات
 ورأيت الفتى مشدوداً إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها وقد
 سال جميع مافى عروقه من الدم حتى أصبح شبحاً مائلاً، أو خيالاً
 ساريكاً، ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ولا
 قدم وقد أحاطت بها اكوام من الحجارة المخضبة بدمائها، ثم
 رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم فعلمت
 انها مجمع دماء هؤلاء المساكين فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط
 على عيني قليلاً قليلاً حتى غاب عن نظرى كل شىء فسقطت فى مكانى
 لا أشعر بشىء مما حولى فلم استفق حتى مضت دولة من الليل
 ففتحت عيني فاذا شبح اسود يدنو منى رويدا رويدا فارتعت لمنظره
 وفزعته الى ساق الشجرة فاخترأت وراءه، فما زال يتقدم حتى
 صار تحت الشجرة فاشعل مصباحاً صغير كان فى يده فتبينته على
 نوره فاذا عجوز شمهطاء فى زى المساكين وسجنتهم فشت تتصفح
 وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه ساعة تبكيه
 وتندبه ثم مشت الى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته ثم
 احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها وقامت على قبره
 تودعه وتقول: «فى سبيل الله ما لقيت فى سبيلى وسبيل احفادك

للثؤساء ايها الشهيد المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه روح طاز عن
 جسدك ، وجسد ضمه قبرك فقد كنت خير الناس زوجا وابا ،
 واطهرهم لسانا ويدا ، وأشرفهم قلبا ونفسا ، فاذهب الى ربك لتلقى
 جزاءك عنده واطلب اليه الرحمة لجميع الناس حتى اقاتليك وظالميك
 وأسأله ان يلحقني بك وشيكا فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك
 إلا الامل في لقاءك ، فأبكاني بكاءها ، واحزنني منظرها ، ووقع في
 نفسي انها صادقة فيما تقول وان شيخها شهيد عن شهداء القضاء
 واحببت ان افق على قصتها وقصته فبرزت من مخبئي ومشيت
 إليها فارتاعت لمرآى عند النظرة الأولى ثم سكنت كأنما ذكرت
 ان لا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها مسند اليوم
 فابتدرتها بقولي لا تراعي ياسيدي فانا رجل غريب عن هذا البلد
 لا اعرف من شأنه ولا من شأن اهله شيئا وقد رايت الساعة موقفاك
 على هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكاءك
 وتمنيت لو افضيت الى بذات نفسك علني استطيع ان اكون عوناً
 لك على همك ، فاستعبرت باكية وانشأت تحدثني وتقول
 إن زوجي لم يكن في يوم من ايام حياته لصاً ولا سارقاً
 بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتقر ساعة واحدة عن
 للسعي في طلب رزقه ورزق اهل بيته حتى كبر ولده وكان واحده
 فاشتد به ساعده وحمل عليه بعض ما كان يستقل بحمله من الهم ،

وما هو إلا ان نعمنا به وبعمولته برهة من الدهر حتى نزلت به نازلة
القضاء، فذهبت بحياته احوج ما كنا إليه وخلف وره اخمة اولاد
لا يتجاوز اكبرهم العاشرة من عمره وكانت قد ادركت اباه الشيخوخة
فاجتمع عليه هم الكبر وهم الشغل فأصبح عاجزاً عن العمل لا
يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة ^(١) واصبحنا جميعاً في حالة من
الشقاء والبؤس لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألم به طرف منها
حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام وليس في يدنا ما نقوم به
أصلا صغارنا ولا ما نعملهم به تعليلاً فأسقط في يدنا وعلمنا أننا
ها لكون جميعاً ان لم يتداركنا الله برحمته من عنده، لم أر بداً من
أر أجأ الى الخطة التي يلجأ اليها كل مضطر عديم فبرزت للناس
أنعروض امرؤ فهم واستندى ما، اكفهم فلم أجد بينهم من يحسن
إلى بجرة ولا مضفة ولا من يداني على سبيل ذلك ، وكان أكبر
ما حال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني أنى ألبس مرقعة الشحاذين
ولا أحمل رכותهم ^(٢) فعدت الى منزلي وبين جنبي من الهن ما
الله به عليم فرأيت الاطفال سهداً يتضاغون ^(٣) جوعاً ورأيت
الشيخ جالساً بينهم يسقي تراب الارض بدموعه ويقرع كفه

(١) الفينة الساعة والحين

(٢) الركوة وعاء الماء على صورة الزورق يحمله الشحاذون

(٣) يتضاغون من الجوع يتضورون منه

بكفه لا يعلم ماذا يصنع ولا كيف يحتال، ولو أن شخص الموت
برز الى في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسى من منظر
هؤلاء الصبية وهم يحدقون فى وجهى عند دخولى ويدورون بأعينهم
حولى ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم؟ وما عدت إليهم
إلا باليأس القاتل، والسكمد الشامل، فتقدمت إلى الشيخ وقلت
له إن فى دير المدينة يزعمون مالا للصدقات يتولى الكاهن الأعظم
انفاقه على الفقراء والمساكين فلو ذهبت إليه وكشفت له خلتك
وسألته أن يمنحك علالة من ذلك المال تستعين بها على أمرك لرجونا
ان نطفيء لوعة هؤلاء الأطفال المساكين، فاستنار وجهه بنور الأمل
وقام الى عصاه فاعتمد عليها ومشى الى الدير حتى بلغه فصعد الى حجرة
الكاهن حتى وقف بين يديه فنفض له جملة حاله وسكب تحت
قدميه جميع ما بقت يدايىام فى عينيه القرىحتين من دموع فاستقبله
الكاهن باقبح ما يستقبل به سائلا مسؤول وقال له ان الدير لا
يجسن إلا إلى الذين أسلفوه الاحسان من قبل وما كنت فى يوم من
أيام رغدك ورخائك من المحسنين إليه، فاذهب لشأنك فأبواب
الرزق واسمة بين يديك فان ضاقت بك فابواب الجرائم اوسع منها،
نخرج من حضرته كشيء محزون لا يرى فضاء الدنيا فى نظره الا
ككفة الحابل^(١) او اخوص القطة^(٢) حتى نزل الى ساحة الدير
(١) الحابل الصائد لا يرمى الحبال للصيد وكفته حبالته (٢) خوص القطة

فلحق في إحدى زواياها غرارة ^(١) دقيق خدثته نفسه بها وما كانت
تحدثه لولا العوز والفاقة ثم ادركه الجلاء فاغضى عنها واستمر سائرا
في طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة أخرى فعاوده
حديثه الأول فحاول دفعه فلم يندفع فجلس بجانبها يحدث نفسه
ويقول: «ان الطعام طعام الفقراء والمساكين وانا فقير مسكين الا اعلم
اسوار هذه المدينة ولا في جميع ارباضها رجلا احوج ولا افقر
مني ، فان كان الطمع في هذه الفرارة جريمة فقد اذن لي الكاهن
بارتكاب الجرائم في سبيل العيش » ثم تقدم اليها فأحتملها على
ظهره ومشى بها جاهدا مترجحا فما تجاوز عتبة الدير حتى اثقله
الحمل وشعر انه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بالقائه عن ظهره
ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار وهم ألقاء ^(٢) تحت جدران البيت
يتضورون جوعا فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة وعلى
الجدران أخرى حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت
في صدره لا تهبط ولا تملو وان ما كان باقيا في عينيه من نور قد
انطفأ دفعة واحدة فاصبح لا يرى شيئا مما حوله واذا نفثة من الدم
قد دفقت من صدره فالتحدرت على رداءه فسقط في مكانه

مجثمها لأنها فحست عنه التراب لتبيض فيه

(١) الفرارة الجوالق

(٢) الالقاء جمع لقي كفتى ، واللقى الشئ الملقى المطروح

مغشياً عليه ، ولم يزل على حاله تلك حتى مر به العسس^(١) فأراه
ورأوا الفرارة بجانبه فارتابوا به وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون
فيما بينهم الفرارة الفرارة وينشدونها في أنحاء الدير حتى يتسوا منها
تخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع
الشيخ فمرفوا ضالتهم وما هي إلا ساعة حتى كانت الفرارة في
الدير وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره
فوا أسفا عليه لقد مات شهيدا مظلوما ووارحمته الى ولا طفالي
البؤساء المساكين من بعده

ثم نهضت من مكانها ومسحت عيرتها بطرف رداها
وظرت الى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يارفيق صباي
وعمداد شيخوختي ، الوداع ياخير الأزواج وابرّ العشراء ، الوداع
حتي يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه » ، ثم انكفأت راجعة في
الطريق التي جاءت منها

وما هو الا ان تغفل شخصها في اعماق الظلام حتى رايت
شبحا آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الاول واقبل يتقدم نحو
متسللا كما يتسلل خنثى خطراته اختلاسا فاختبأت وراء الشجرة لا ترى ما هو
صانع وكان القمر قد بدا يشرف على الوجود من طامعه ويرسل الخيوط
الاولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى فأريت الشبح على نوره
(١) العسس الطائفون بالليل لحراسة الناس او كشف اهل الريبة

فاذا فتاة جميلة باكية لم أرَ في حياتي دموعاً على خد أجمل من دموعها
على خدها فدارت بعينها لحظة حتى وقع نظرها على جثة المصلوب
بين أغصان الشجرة فشئت اليه ومدت يدها الى الجبل الملتف به
فعاجلت عقده حتى انحلت ثم تلقت على بدها وأضجعت على الارض
ووقفت بجانبه ساعة تنظر اليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا
حافلة ثم هتفت صارخة واشقيقاه وسقطت فوقه تضمه وتقبله
وتلم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيراً شديداً كأنما تنفث
أفلاذ كبدها نفثاً حتى نال منها الجهد فالت برأسها وهوت بجانبه
هوى الجذع الساقط لآحراك بها ، فأهمني أمرها وخفت ان
يكون قد لحق بها مكرهه فشئت اليها حتى صرت بجانبها فشعرت
بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها فعلمت أنها حية فجلست فوق
رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد برهة فرأتني بجانبها
فنظرت الى نظرة حائرة ثم تقدمت نحوي وقالت على من تبكي
أيتها الرجل الغريب في هذا المكان ؟ قلت أبكي عليك ياسيدي
وعلى فقيدك البائس المسكين ، قالت نعم انه بائس مسكين فابك
عليه ياسيدي بكاء كثيراً فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة
وريحانة النفوس ومتمعة الافئدة والقلوب ، ولقد ظلموه اذ قتلوه
لأنه كان قاتلاً ولا مجرمًا ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من
يد تمزيقه فقطع تلك اليد الممتدة اليه وانقم لنفسه وللشرف

والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه فأجرم
من ذاد عن عرضه ، ولا أنتم من قتل قاتله ، قلت هل لك أن
تقصي على قصته ياسيديتي ؟ قالت نعم :

نزل قريتنا في صباح يوم من الأيام أحد قواد الامير الذين
يطوفون البلاد لجمع الضرائب منها فما زال يمر بأبيات القرية يبتك
يبتك حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابه فنظر الى نظرة مريبة
طار لها قلبي خوفا وفزعاً ثم سألتني عن أخي فدلته عليه فسأله عن
المال فاستنساه (١) اياه أياماً قلائل حتى يبيع غلته فأبى الا أن
يتمجله الساعة أو يأخذني رهينة عنده الى يوم الوفاء وغمز بي بعض
أعوانه فداروا حولى وكنت أسمع قبل اليوم حديث أوائك
الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن قصر الامير رهائن فلا يخرجن
منه الا ساقطات أو محمولات الى قبورهن ففزعت الى أخي
ولصقت به فوقف بيني وبين الرجل وقال له لاشأن لك مع الفتاة
انما أنا صاحب المال والمأخوذ به فان كان لابد لك من رهينة فانا
رهينة مالى حتى يصل اليك ، فقال له لا بد لي من المال أو الرهينة
ولا بد من الرهينة التي أريدها فان أبيت خيانتك فداء عنها ، فغضب
أخي غضبة انتفض لها في جبينه عرق لم أره في ساعة من ساعات
غضبه قبل اليوم وقال له « فلتكن حياتي فداء لشرفي » ثم جرد

(١) استنساه غريمه الدين طلب منه أن يئسسه اياه أى يؤجله له

سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ووقف في مكانه لا يبرحه
وسيفه يقطر دما حتى غله ^(١) الأعوان واحتملوه الى السجن ،
فتلك حياته ياسيدى وذاك مماته ، فلئن بكيته فانما أبكى فتي الفتيان
هممة ونجدة ، ونادرة الرجال عزة وإباء ، وأفضل الأخوة
رحمة وحنانا

ثم قالت هل لك أن تعينني ياسيدى على دفنه قبل أن يحول
النهار بنى وبينه فقد أصبحت واهية متضعضعة لا أقوى على
شئ فقممت الى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة
الشيخ فواربته فيها فتقدمت الفتاة الى القبر وجثت بجانبه ساعة
مطرقة ساكنة لا أعلم هل هي باكية أو ذاملة حتى فارقت مكانها
فرايت تربة القبر مخضلة بدموعها ثم مدت يدها الى وقالت :
شكراً لك ياسيدى فقد أعنتني على موقف لا يجد فيه مستعين
معيّنًا ، ومضت لسبيلها

فاتبعها نظري حتى اختفت آخر طية من طيات رداها
فعدت الى نفسى فاذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال في مكانها فهاجنى
منظرها وقلت في نفسى : اننى لا أدخر لنفسى عملاً أرجو فيه رحمة
لله واحسانه يوم جزائه أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب ،
احتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم القيت عليها رداي

(١) غله وضع في عنقه الغل

واحتملتها على يدي حتى اضجعتها في حفرتها ، فاني لا أحنو عليها
 التراب اذ شعرت بحركة ورائي فالتفت فاذا فتى يافع متلفع بيردة
 سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه فابتدري بقوله من صاحب
 هذا القبر الذي تدفنه يا سيدي ؟ قلت فتاة مرجومة رأيت جثتها
 الساعة منبوذة في هذا العراء فرحت مصرعها واحتفرت لها هذا
 القبر الذي تراه ، قال ان لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأن فهل تأذن
 لي ان اودعها الوداع الأخير قبل ان يحول التراب بيني وبينها ؟
 قلت نعم شأنك وما تريد ، ونخيت قليلا فدنا من القبر وجثا فوق
 ترابه وظل يناجى الميته نجاه خلت ان الكواكب تردده في سماءها
 والرياح ترجمه في اجوائها ، حتى اشتفت نفسه فقام الى التراب
 يهيله عليها حتى واراها ثم التفت الى وقال لقد شكر الله لك يا سيدي
 هذه اليد التي اسديتها الى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف
 الناس من عورتها ، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله
 خيرا بما فعلت ، وأحسن اليك كما أحسنت اليها ، وأراد الرجوع
 فاستوقفته وقلت له : وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟
 فانفرجت شفتاه عن ابتسامة مرة ونظر الى نظرة هادئة مطمئنة
 وقال نعم يا سيدي ولو لا ذلك ما رأيتني الساعة واقفا على حافة
 قبرها انديها

أنا الرجل الذي اتهموها به وأستطيع أن أقول لك كما أقول

لربي يوم أفق بين يديه رافعا اليه ظلامتها إنها بريئة مما رموها به
وانها اطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقي من القطرة العصفية
لقد أحبت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لالعة وأحبتني كذلك
ثم شببنا وشب الحب معنا فتماقدا على الوفاء والاخلاص ثم خطبتها
الى أبيها فأخطبني ^(١) راضيا مسرورا حتى اذا لم يبق بيني وبين البناء
بها الا أيام معدودات اذ نزلت بأبيها نازلة الموت فعلمنا أن لا بد
لنا من الانتظار بأنفسنا عاما كاملا ففعلنا حتى اذا انقضى العام أو
كاد حدث ان ذهبت الفتاة الى قاضي المدينة في أمر يتعلق بغيراتها
فراها القاضي فتبعتها نفسه فأرسل وراء عمها وكازولى امرها بعد
أبيها وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا
بحرا ما تجا من الدم اذا تراءى لهم على شاطئه الثاني دينار لاعم
فعرض عليه رغبته في الزواج من ابنة أخيه فطار بهذه المنحة فرحا
وسرورا ولم يتردد في اجابة طلبه وعاد الى الفتاة بحمل إليها هذه
البشرى فاستقبلته بوجه باسر وقالت إنني لا أستطيع ان اكون
خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يبَلْ بقولها وقال لها ستزوجين
ممن أريد طائفة او كارهة فلا خيار لك في نفسك انما الخيار لي
فيك وحدي ، وما هي الا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدد زواجها
وسموا يوما لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان

(١) أخطبه قبل خطبته

لها في بيتها من ثياب وحلية وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم اين تذهب ولا أى طريق تسلك ، وكان عمها قد رفع الى القاضى أمر فرارها فبث عليها عيونه وارصاده يطالبونها في كل مكان حتى لمحها بعضهم على البعد جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمرآه وتركت حقيمتها في مكانها وفرت من بين يديه تعدو عدواً سريعاً وكننت عائدات في تلك الساعة الى منزلى قرأتني فألقت نفسها على وقالت انهم يتبعوننى وانهم ان ظفروا بى قتلونى فارحمنى يرحمك الله ، فأهمنى أمرها وذهبت بها الى منزلى وأخفيتهما في بعض حجراته وماهى إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضى يطلبها طلباً شديداً فأناكرت رؤيته فلم يصدقنى وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر بها فصاح : ان الفتاة زانية وهذا صاحبها فأقسمت له بكل محرّجة من الايمان إنها بريئة مما يرميها به ، فلم يصغ الىّ ، وأمر الأعوان فاحتملوها وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربنى أحدهم على رأسى ضربة طارت بصوابى فقطت مغشياً علىّ ولم أستفق إلا بعد برهة طويلة فوجدت الحى قد أخذت مكانها من جسمي فلزمت فراشى بضعة أيام لا أفيق حتى يتمثل لى ذلك المنظر الذى رأيته فأشعر بالرعدة تتمشى في أعضائى فأعود إلى ذهولى واستغراقى حتى أدركتنى رحمة الله فأبليت منذ الأمس بعض الابلال واستطعت ان أخرج الليلة من منزلى

فعلمت ماتم من أ.ر. الفناء فجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير
وأواري جثتها التراب ، وما أنا بالسالى عنها ولا بالذائق حلاوة
العيش من بعدها حتى ألحق بها

ثم القى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات
البائسات من حزن ويأس ولوعة وشقاء ومضى لسبيله

فما أبعد الا قليلا حتى رأيت القمر ينحدر الى مغربه ثم ما
لبث ان اختفي فاذا الفضاء ظلمة وسكون ، واذا الساحة وحشة
وانقباض ، فصعدت الى ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة
فتألففت بردائي واخذت مضجعي منها وانشأت أحدث نفسي
وأقول

ليت شعري الا يوجد في هذه الدنيا عادل ولا راحم ؟ فان
خلت منهما رقعة الارض فهل خلا منهما وجه السماء ؟

أجرم لزعم الدينى لأنه ضن على ذلك الشيخ المسكين بدرهم
من مال الله يسد به جوعته وجوعة أهل بيته فاضطر الرجل الى
ارتكاب جريمة السرقة فعوقب السارق على سرقة ، ولم يعاقب
القاسى على قسوته ، ولو لا قسوة القاسى ما كانت سرقة السارق
وأجرم الامير لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر
أن تجود بعرضها فاضطر أخوها الى الذود عنها فارتكب جريمة
القتل في زياده فعوقب الفتى على جريمته وسلم دافعه الى الإجرام

وأجرم القاضى لأنه أراد أن يكره فتاة لأحببه على الزواج
منه ففردت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوه على ظلمه
واستبداده

وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبرى مجرماً ، بل أصبح المجرم
قاضى البرى ، وصاحب النظر فى أمره
فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم أم لا تزال تنيرها
بكواكبها ونجومها ، وتطررها غيثها ومزنها ؟

ثم التفت الى مصرع المقبورين فوق نظرى على بركة الدم
التي اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء فرأيت خيال نجم فى
السماء يتلألأ فوق صفحتها فرفعت نظرى الى ذلك النجم فاذا
هو المريخ (١) يتلهب ويضطرم كأنه جرة الغيظ فى أفئدة الموتورين
فماق نظرى به ساعة ثم رأيت كأنه يهبط الى الأرض شيئاً فشيئاً
فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه حتى اذا لم يبق بينه وبين الأرض
الا ميل أو بعض الميل إذا به ينتفض انتفاضاً شديداً وإذا هو
على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه
ومنخريه ويتطاير من أجنحته وأطرافه فلم يزل هابطاً حتى نزل
على رأس الشجرة التي تظل قبور الشهداء ثم صفق بجناحيه تصفيقة
اهتزت لها جوانب الأرض واضاءت بها الأرجاء ثم اخذ ينطق

(١) يسمى قدماء اليونان فى خرافاتهم المريخ إله الحرب

بصوت كأنه جاجلة الرعد في أعماق السماء ويقول
ها هم الناس قد عادوا الى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد
ملئت شرًا وفساداً حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن يأوى
اليها في مهبطه مَلَكٌ من أملاك السماء

ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفًا ،
وها هي لحوم الفقراء تنحدر في بطون الاغنياء انحداراً ، فلا
الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانمين

ها هم الفقراء يموتون جوعاً فلا يجدون من يحسن اليهم ،
والمنكوبون يموتون كمداً فلا يجدون من يعينهم على همومهم
واحزانهم

ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمته فأغمدوا
السيوف التي وضعها الله في أيديهم لاقامة العدل والحق وتقلدوا
سيوفاً غيرها لا هي الى الشريعة ولا الى الطبيعة ومشوا بها يفتحون
لأنفسهم طريق شهواتهم ولذاتهم حتى ينالوا منها ما يريدون

ها هم القضاة قد طمعووا وظلموا ووضعوا القانون ترساً أمام
أعينهم يصيبون من ورائه ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون
تحت حمايته ولا ينالون

ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا خولوا مبادهم الى
مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقونه من أموال العباد ثم يضمنون

بالقليل منه على الفقراء والمساكين

ها هم الناس قد أصبحوا أعواناً للامراء على شهواتهم والقضاة
على ظلمهم وزعماء الاديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعا
نقمة الله ملوكا ومملوكين ، ورؤساء ومرءوسين

لتسقط العروش ولتهدم المعابد ولتتقوض المحاكم وليعم الخراب
المدن والامصار ، والسهول والاعوار ، والنجاد والاغوار ، وتغرق
الارض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ
والاطفال ، والاخياد والاشرار ، والمجرمون والابرياء ، وما ظلمهم
الله ولكن أنفسهم يظلمون

وما انتهي من دعوته تلك حتى رأيت بركة الدم تفور كما
فار التنور يوم دعوة نوح ثم فاضت الدماء منها ومشت تتدفق في
الارض تدفق السيل المنحدر وإذا الارض ببحر أحمر يزخر ويعتلاج
ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ،
وحيوان وانسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئاً
فشيئاً حتى ضرب بأواجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها
فصرخت صرخة عظمى فاستيقظت من نومي وكان ذلك في صباح
اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح
تحت نافذه غرقتي : إعلان الحرب !

الهاوية

« موضوعة »

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها !

لم أعش من تلك الاعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم
إلا عاماً واحداً مر بي كما يمر النجم الدهرى في سماء الدنيا ليلة واحدة
ثم لا يراه الناس بعد ذلك

قضيتُ الشطر الاول من حياتي افتش عن صديق ينظر
الى اصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر الى سلعته، والزارع
الى ماشيته ، فأعوزني ذلك حتى عرفت فلاناً منذ ثمانى عشرة عاماً
فعرفت امرأ ما شئتُ ان أرى خَلْمة من خلال الخير والمعروف
فى ثياب رجل الا وجدتُها فيه ولا تخيلت صورة من صور الكمال
الانساني فى وجه انسان إلا اضاءت لى فى وجهه فجَلَّتْ مكانته عندي
ونزل من نفسى منزلة لم ينزلها أحد من قبله وصِفَتْ كأس الود
بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر حتى عَرَضَ لى من حوادث
الدهر ما أزعجني عن مستقرى فهجرت مصر الى مسقط رأسى
غير آسف على شئ فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم

فتراسلنا برهة من الزمان ثم فترت عني كتيبه ثم انقطعت فخرت
لذلك حزنا شديداً وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب إلا
مذهبا واحدا وهو الشك في صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت
بالمصير اليه لتعرف حاله قعدت بي عن ذلك هم كان يقعدني عن كل
شأن حتى شأن نفسي فلم أعد الى مصر إلا بعد سبعة أعوام فكان
أول هـى يوم هبطت ارضها ان أراه فذهبت الى منزله في الساعة
الاولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي
حتى اليوم

تركزت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان
تترأى فيه السعادة في الوانها المختلفة وتترقق وجوه ساكنيه
بشراً وسرورا ثم زرتة اليوم نخيل الى انني امام مقبرة مظلمة
ساكنة لا يهتف فيها صوت ولا يتراءى في جوانبها شخص
ولا يلمع في ارجائها مصباح فظننت انى اخطأت المنزل الذى
اريدته او انني بين يدي منزل مهجور حتى سمعت بكاء طفل
صغير ولحت في بعض النوافذ نورا ضعيفا فشيت الى الباب
فطارقه فلم يجبني احد فطارقه اخرى فلم يفتح من خصاصه (١)
نوراً متحركاً ثم لم يلبث ان انفرج لى عن وجه غلام صغير فى
اسمال بالية يحمل فى يده مصباحاً ضئيلاً فتألمته على ضوء المصباح

فرايت في وجهه صورة أبيه فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالامس زهرة هذا المنزل وبدرسمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إلى بالدخول وشى أمامي بمصباحه حتى وصل بي إلى قاعة مغبرة شعشاء بالية المقاعد والاستار لولا نقوش أعرفها من قبل لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشم في ظاهر اليد ما عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها الليالي السعادة والهناء اثني عشر هلالا ، ثم جرى بيني وبينه حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت منه أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ثم تركني ومضى وما لبث إلا قليلا حتى عاد يقول لي : إن والدته تريد أن تحدثني حديثا يتعلق بوالده ، خفق قلبي خفقة الرعب والخوف وأحسست بشيء لا أعرف ما أتاه ^(١) ثم التفت فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب فحييتها فحييتني ثم قالت لي هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك ؟ قالت لا فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقه سبعة أعوام قالت ليتك لم تفارقه فقد كنت عصمة للرجل فيه وحى له من كل سوء فاهو إلا ان فارقه حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان وكان قتي كما نعلمه غريرا فما زالت تغريه بالشر وتزخرفه له حتى سقط فيه فسقطنا جميعا في هذا الشقاء الذي تراه ، قلت وأى شر تريدن باسديتي

(١) المأتى الوجه الذي يأتي منه الشيء

ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه؛ قالت سأقص عليك كل
شيء فاستمع لما أقول

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعلقت
حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حيث كان
ولا تزال نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته فقد استحال
من ذلك اليوم امره وتنكرت صورة اخلاقه واصبح منقطعاً عن
أهله وأولاده لا يراهم الا في الفينة بعد الفينة^(١) وعن منزله
لا يزوره الا في أخريات الليال، ولقد اغتبطت في مبدأ الامر
بتلك الخطوة التي نالها عند ذلك الرجل والمنزلة التي نزلها من
نفسه ارجو له من ورائها خيراً كثيراً معتفراً في سبيل ذلك ما كنت
اشعر به من الوحشة والالم لا تقطاعه عني واغفاله النظر في شأن
يديه وشؤون أولاده حتي عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكابد
غصصاً شديدة وآلاماً جساماً فدنوت منه فشممت من فمه رائحة
الحمر فعلمت كل شيء

علمت ان ذلك الرئيس العظيم الذي هو قدوة مروءسيه في
الخير ان سلك طريق الخير وفي الشر ان سلك طريق الشر قد
قاد زوجي الفتى الضعيف المسكين الى شر الطريقتين، وسلك به
امسواً السبيلين، وانه ما كان يتخذ صديقاً كما كنت اظن بل كان

يتخذُه ندِيمًا ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه وسكبت بين يديه
من الدموع كل ما تستطيع ان تسكبه عين رجاء ان يعود الي
حياته الاولى التي كان يحياها سعيدا بين اهله واولاده فما جدت
عليه شيئا ، ثم علمت بعد ذلك ان اليد التي سافته الى الشراب قد
سافته الى اللعب فلم اعجب لذلك لانى اعلم ان طريق الشر واحدة
فن وقف برأسها لا بد له من ان ينحدر فيها حتى يصل الى نهايتها
فاصبح ذلك الفتى النبيل الشريف الذى كان يعف بالأمس عن
شرب الدواء اذا اشم فيه رائحة الشراب ، ويستحي ان يجلس في
مجمع يجلس فيه قوم شاربون ، سكيرا مقامرا مستهترا في حالتيه
لا يتجمل ولا يتستر ولا يتقى عارا ولا مائما ، واصبح ذلك الاب
الرحيم والزوج الكريم الذى كان يضمن بأولاده ان يعلق بهم الذر ،
ويزوجه ان يتجهيم ^(١) لها وجه السماء ، ابا قاسيا وزوحا سليطا
يضرَب اولاده كلما دنوا منه ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها ،
واصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي ان يعود
الى المنزل في بعض الليالى في جمع من عَشْرَائِهِ الأَشْرار ، فيصعد بهم
الى الطَبقة التى أنام فيها أنا وأولادى فيجلسون في بعض غرفها
ولا يزالون يشربون ويقصفون ^(٢) حتى يذهب بعقولهم الشراب

(١) تجهيم له استقبله بوجه كريمة

(٢) قصف الرجل أقام فى أكل وشرب ولهو

ففيها جوب ويرقصون ويملاؤن الجوصراخا وهتافا ثم يتعادون^(١)
بعضهم وراء بعض في الابهاء^(٢) والحجرات حتى يلجؤا على باب غرقتي
وربما حاول بعضهم العبث بي اونزع دأئي عن وجهي على مرأى منهم
ومسمع فلا يقول شيئا، ولا يستنكر أمرا، فأفر من بين أيديهم
من مكان الى مكان وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا ازار
ولا خمار غير ازار الظلام وخماره حتي اصل الى بيت امرأة من جاراتي
فأضي عندها بقية الليل

وهنا تغيرت صوتها فأمسكت عن الحديث هنيهة واطرقت
برأسها فاعلمت انها تبكي فبكيت بيني وبين نفسي ابكائها ثم رفعت
رأسها وعادت الى حديثها تقول

وما هي الا اعوام قلائل حتى انفق جميع ما كان في يده من
المال فكان لا بد له ان يستدين ففعل فاثقله الدين فرهن فمعجز عن
الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ولم يبق
في يده غير راتبه الشهري الصغير، بل لم يبق في يده شيء حتي
راتبه لانه لا يملكه الا ساعة من نهار ثم هو بعد ذلك ملك الدائنين
او غنيمة المقامرین

هذا ما صنعت يد الدهر به اما ما صنعت بي وبأولادي فقد

(١) من المدو وهو الجري

(٢) الابهاء جمع بهو وهو البيت المقدس أمام البيوت

فقد مر على آخر حلية بعتها من حلاى عام كامل وهامى حوائت
الرايين والمسترهين ملاى بلباسى وأدوات بيتى وأثائه ولولا
رجل من ذوى قرباى رقيق الحال " يعود على من حين الى
حين بالنز القليل مما يستلّه من أسدق عياله لها سكت وعلاك
أولادى جوعا

فاعلك تستطيع ياسيدي أن تكون عوناً على هذا الرجل
المسكين فتعقذه من شقائه وبلائه بما ترى له فى ذلك من الراى
الصالح وأحسب أنك تقدر منه للمنزلة التى تنزلها من نفسه على
ما عجز عنه الناس جميعاً فانك إن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً
لا ننسى يدك فيه حتى الموت

ثم حيتى وهضت لسبيلها فسألت الفلام عن الساعة التى
تستطيع أن أرى أباه فيها فى المنزل فقال أنك تراه فى الصباح
لذهابه الى الديوان فانصرفت لشأني وقد أضمرت بين جنبي
عة ما زالت تقييني وتعدني ونذود عن عيني سنة الكرى حتى
نفضى الليل وما كاد ينقضى

ثم عدت فى صباح اليوم الثانى لأرى ذلك الصديق القديم
ي كنت بالأمر أسعد الناس به ولا أعلم ما مصير أمرى معه
أوفى نفسى من القلق والاضطراب ما يكون فى نفس الذهاب

(١) رقة الحال كناية عن الفقر

على ميدان سباق قد راهن فيه بجميع ما يملك فهو لا يعلم أيكون
بعد ساعة واحدة أسعد الناس أم أشقاهم



الآن عرفتُ أن الوجوه مرآيا ^(١) النفوس تضيء بضياؤها
وتظلم بظلامها ، فقد فارت الرجل منذ سبع سنين فأنتهى الأيام
صورته ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع ضياء
الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فوقها تلتألؤ نور الشمس
فوق صفحتها لما رأيته الآن ولم أر أمام عيني تلك الغلالة البيضاء
من الضياء خيل إلى أنى أرى صورة غير الصورة الماضية ورجلا
غير الذى أعرفه من قبل

لم أر أمامى ذلك الفتى الجميل الوضاح الذى كان كل منبت
شعرة فى وجهه فما ضاحكا توج فيه ابتسامة لامعة بل رأيت مكانه
رجلا شقيقا منكوبا قد لبس الهرم قبل أوانه وأوفى على السنتين
قبل أن يلمخ الثلاثين فاسترخى حاجباه وثقلت أجبانه وجمدت
نظراته وتهدل عارضاه وتجمد جبينه واستشرف ^(٢) عاتقه وهوى
رأسه بينهما هوية بين عاتقى الأحذب فكانت أول كلمة قلتها له
قد تغير فيك كل شيء يا صديقى حتى صورتك ، وكأنما ألم بما

(١) المرآيا جمع مرآة

(٢) استشرف الشيء ارتفع

في نفسي وعلم اني قد علمت من أمره كل شئ، فأطرق برأسه
اطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظاهرها ولم يقل
شيئا، فدنوتُ منه حتى وضعت يدي على عاتقه وقلت له

والله ما أدري ماذا أقول لك ! الأعظمك وقد كنت واعظي
بالأمس ونجم هداى الذى أستشير به فى ظلمات حياتي ، أم أدلك
على ما أوجب الله عليك فى نفسك وفى أهلك ولا أعرف شيئا
أنت تجهله ولا تصل يدي إلى شاردة تقصر يدك عن نيلها ، أم
استرحمك لأطفالك الضمفاء وزوجتك البائسة المسكينة التى لا
عضد لها فى الحياة ولا معين سواك وأنت صاحب القلوب الرحيم
الذى طالما خفف رحمة بالعمداء ، فأحرى ان يخفف رحمة
بالأقرباء.

ان هذه الحياة التى تحياها ياسيدي انما ياجأ اليها الهمم
العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروا فيها عن
أعين الناس حياءً وخجلاً حتى يأتهم الموت فيخلصهم من
عارهم وشقايتهم وما أنت بواحد منهم

انك تمشي ياسيدي فى طريق القبر وما أنت بناقم
لى الدنيا ولا متبرم بها ^(١) فأرغبتك فى الخروج منها خروج
رائس المنتحر ؟

(١) تبرم بالامر سئمه وضجر منه

عذرناك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لديك مقام
ما خسرت من حياتك الاولى ، ولكنك تعلم انك كنت غنياً
فاصبحت فقيراً ، وصحيحاً فاصبحت سقيماً ، وشريفاً فاصبحت
وضيعاً ، فان كنت ترى بعد ذلك انك سعيد فقد خلت رُقعة
الأرض من الأشقياء

ان كان كل ما يمنيك من حياتك هذه أن تطالب فيها الموت
فأطابه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة فذلك خير لك من هذا
الموت المتقطع الذي يكثر فيها عذابك وألمك ، وتظلم فيه آثامك
وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك
على الاولى

حسبنا يا صديقي من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر
فلا نضم اليه شقاءً جديداً نجلبه بأنفسنا لأنفسنا فهات يدك
وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس فقد
كننا سعداء قبل أن نفرق ثم افترقنا فشقينا ، وما نحن قد التئمتنا
فانعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا

ثم مددت يدي اليه فراعني أنه لم يجرئك يده فقلت له مالك
لا نمد يدك الي ؟ فاستعبر باكي وقال لا أني لا أحب أن أكون كاذباً
ولا حاشاك ، قلت وما يمنيك من الوفاء ؟ قال يمني مني اني رجل
شقي لا حظ لي في سعادة السعداء ، قلت وقد استطعت بالأمس

أن تكون شقياً فلم لا تستطيع اليوم أن تكون سعيداً ، قال لان
السعادة سماء والشقاء أرض والهبوط الى الأرض أسهل من
الصعود الى السماء ، وقد زلت قدمي عن رأس الهوة فلا حيلة لي
في الاستمسك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات
كأس الحياة المريرة فلا بد لي أن أشربها حتى ثملاتها ، ولا شيء
يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط ، وهو أن لا أكون قد شربت
الكأس الأولى قبل اليوم ، قلت ليس بينك وبين النزوع الى
عزلة صادقة تمزجها فإذا أنت من الناجين ، قال ان العزلة أثر من
آثار الارادة وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على أمري لا إرادة لي
ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء وابك على
صديقك القديم منذ اليوم ان كنت لا ترى بأساً في البكاء على
الساقطين المذنبين

ثم انفجر باكياً بصوت عال وتركني في مكاني دون أن
يحميني بكلمة واحدة وخرج هائماً على وجهه لأعلم أين ذهب ،
فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم

* *

لم يستطع رئيس الديوان أن يحامل نديمه بالامس زمناً طويلاً
فأقصاه عن مجلسه استئقالاته ، ثم عزله من وظيفته استنكاراً
لعمله ، ولم تذرف عينه دمعاً واحدة على منظر صريعه الساقط

بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه ماله سكه
القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه فلجأ هو وزوجته
وولده الى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور فأصبحت
لا أراه بعد ذلك الا ذاهباً الى الحانة أو عائداً منها ، فان رأيته
ذاهباً تواري عن عيني حياء وخجلاً وان رأيته عائداً دنوت منه
فمسحت عن وجهه ماله صق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه
من الدم ثم قدته الى بيته

وهكذا ما زالت الايام والاعوام تأخذ من جسم الرجل
ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتقلبة ، أو
حلماً من الاحلام السارية ، يمشى في طريقه مشية الذاهل المنسوده
لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقى ما يعترض سبيله حتى
يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين في دور بعينه حول نفسه كأنما
يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضع ، أو يقاب نظره
في أثوابه وما في أثوابه غير الخروق والرقاع ، وينظر الى كل
وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدواً فيضاً وليس له عدو
ولا صديق ، وربما تفاق بعض الصبيان بماتقه فدفعهم عنه بيده
دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد
موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهذأت سورها في رأسه
انحدر الى الحانة فلا يزال يشرب ويتزيد حتى يعود الى ما

كان عليه ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت له بضعة مشهور الحادثة الآتية



عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلا إلى القوت وأبكاه أن ترى ولدها وابنتها باكين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما فلم تر لها بداً من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم فأرسلهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها ويقينانها فكانت لا تراهما بعد ذلك إلا قليلاً ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل عنه فيها عيون الشرطة وقلما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا ونس لها ولا معين إلا جارة عجوز تختلف اليها من حين إلى حين فاذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيها في اعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة بين زوج محب كريم وأولاد كالكوكب الزهر حسناً وضياء ثم تذكر كيف أصبح السيد مسوداً والمخدوم خادماً والعزب الكريم ذليلاً مهاناً وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلئى المنظوم الذي كان حلقة بديعة في جريد الدهر ثم استحال بعد انتثره إلى حصيات ملقيات على سطح القبراء تطوؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام فتبكي بكا، الواله في إثر قوم ظاعنين حتى تلفت نفسها أو تسكد ، على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقدًا لذلك الانسان الذي كان سبباً في شقاء وشقاء ولديها ولا حدثته

نفسها يوماً من الأيام بمفاضلته أو مفارقتها لأنها امرأة شريفة
والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب ، بل كانت تنظر إليه
نظر الأم الحنون الى طفلها الصغير فترحمه وتعطف عليه وتسهر
بجانبه إن كان مريضاً ، وتأسو جراحه إن عاد جريحاً وربما طرده
الخارج في بعض لياليه من حافته إن لم يجد معه ثمن الشراب فيمود
الى بيته هائجاً ثائراً يطلب الشراب طلباً شديداً فلا يجد لها بداً
من أن تعطيه نفقة طعامها أو تباع له من الخمر ما تسكن به نفسه
رحمة به وإقواء على تلك البقية الباقية من عقله

وكان الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الاثقل حتى
أضاف اليها أثقلاً جديداً فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تحرك
في أحشائها فاملت أنها حامل وأنها ستأتى الى دار الشقاء بشقى
جديد فهتفت صارخة : رحماك اللهم فندامات الكأس حتى
حتى ما تسع قطرة واحدة ، وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب
أن تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها فلم
يحضرها أحد الا جارتها المجوز فاعانها الله على أمرها فوضعت ثم
مرضت بعد ذلك بحمى النفس مرضاً شديداً فلم يجد طبيباً يتصدق
عليها بعلاجها لان البلد الذى لا يستجى اطباؤه ان يطالبوا أهل
المريض بمد موته بأجرة علاجهم القاتل لا يمكن ان يوجد فيها
طبيب محسن ولا متصدق فما زال الموت يدنومنها رويداً رويداً

حتى أدركتها رحمة الله فوافها اجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها
غير طفلتها الصغيرة عالقة بشديها

في هذه الساعة دخل الرجل نائرا مهتاجا يطلب الشراب
ويفتش عن زوجته لأنى له منه بما يريد فدار بعينيه في انحاء الغرفة
حتى رآها ممددة على حصيرها ورأى ابنتها تبكى بجانبها فظنها نائمة
فدنا منها ودفع الطفلة بعيدا عنها وأخذ يجر كم التحريك شديد ألهم يشعر
بجر كة فراه الامر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى تملأ قلبه
وبدأ صوابه يعود اليه شيئا فشيئا فأكب عليها يحدق في وجهها تحديقا
شديدا ويدنو منها رويدا رويدا حتى رأى شبح الموت ينظر اليه بعينيهما
الشاحختين الجامدتين فترجع خوفا وذعر افوطى في تراجع صدر
ابنته فأنت أنه مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة، فصرخ صرخة
شديدة وقال واشقا أه وخرج هائما على وجهه يدو في الطرق
ويضرب رأسه بالعمد والجدران ويدفع كل ما يجد في طريقه من
انسان أو حيوان ويصيح ابنتى ! زوجتى ! هلموا الى ! أدركونى !
حتى أعيا فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليه ويثن
أنين الذبيح والناس من حوله ييكونه لا لأنهم يرفونه بل
لأنهم يرون في وجهه آية شذائه

وكذلك كانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من
ذهوله الطويل سببا في ضياع ما بقي من عقله

وما هي الا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولاً في
قاعة من قاعات بیمارستان ، فوارحمته له ولزوجته الشهيدة
ولطفله الصريمة ولأولاده المشردين البؤساء ، ووا أسفا عليه
وعليهم جميعاً حتى الموت



حفا - النيل



الرحوم الشيخ محمد عبده

الثريا

الاستاذ الحكيم فقيد الشرق

الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية سابقاً

ليست المصيبة التي تذهب بالدمع تذهب بالأمل ولكن
 المصيبة التي تذهب بالأمل تذهب بالحياة وما الحياة إلا كظائر
 حذر رنقت عبونه سفة من النوم فأدركه صياد حريص فسلبه حياته
 أصابت الأيام في أخرياتها عالم الشرق ونبراس الفلسفة ومنار
 الدين وحجة الفقه وامام الامة مفتي الديار المصرية إثر داء نجيس
 لو أصاب الأيام لذهب بضياؤها ولو أصاب البحار لغاض بمانها
 فاتفقت الامة في الحزن واختافت والصبر وكادت الشمس تحترق
 من الاسف والمهج تدوب من التلف حزناً على عالم أبي الدهر أن
 يبقى على حياته الطيبة لينهض بالشرق بعد ما كبلته العناء
 (الجهلاء) بقيود لو كبل انسان بها الليل لحا الله آية النهار
 أخرجت الأرض ذلهم العالم كما تخرج النحل الشهد من
 بطونها فأنخرت الأرض على السماء كما يفتخر الصباح على المساء

فمكف على الدرس في أدوار متباينات وأيام مخلفات وكان في
إبان نشأته كالغصن الرطب فأثرت فيه الأعصار الأزهرية
وكادت تميل به فأسكر طريقة التدريس وعاف النمسك بالقديم
فأغنى إلى بلده وشغل بالزراعة بعد ما تصور أن الإنسان لا يمكنه
أن يجتاز بحر الظلمات بغير دليل ولا قبل له باجتيازه — في ذلك
المهد وما زال كذلك حتى ألان قناته أبوه فعاد إلى الأزهر مسكراً
ففتح الله عليه وزل له الصواب فأعرف من بحر المعقول ما شاء
أن يعرف وقطف من روض المنقول ما شاء أن يقطف . وكان
الأزهر في ذلك الحين يضم بين جوانبه عالماً نبغ في الفلسفة
وعرف بالمنطق وهو الشيخ (حسن الطويل) فلزمه التقييد ملازمة
اللفظ للمعنى ووافق . ووافق الروى للقصيدة وأخذ عنه ما جملة
في أيام قلائل يعبر عن أفكار الشيخ ومقاصده فكان بين أقرانه
كالنجم يهتدى به في غياهب الظنون ولما قصد مصر روح الفلسفة
ولسان المنطق السيد جمال الدين الأفغانى مشى الاستاذ تحت
سمائه المنيرة فصارت معارفه تنقل من صدر إلى صدر ومواهبه
تنقل من عقل إلى عقل حتى نبع نبوغاً لا يشاركه فيه ناطق بالضاد
فرأى جمال الدين أن روضته أزهرت وشجرتها أثمرت فافتخر به
وأدناه منه وقال وهو بين عالم الأرواح وعالم الأحساد لم يريده
أننى خرجت من الدنيا وما ألفت كتاباً ولكن تركت لكم أثراً

ينغنى عن جميع الكتب . وبعد ما برع المفتى تنفس صدر الثورة
البرابية فألزمته الظروف ان يكون من اعوانها كما ألزمت فقيد
الشعر وصاحب دولتى السيف والقلم محمود باشا سامى البارودى
ولما سكنت نائرة الثورة غضب عليه الامير فنفاه الى الشام فرأى
مكانا رحبا بين علمائها ومقاما ساميا بين أمرائها فاغتربت العلماء
من بحر فضله واستضاءت الامراء بنور علمه ولم يقعد به الحزن
فى منفاه عن افادة الدين والادب فطفق يفسر الغمامض من
الخطب ويشرح الصعب من المتشابهات حتى أفاد من استفاد
ثم شخض الى مصر بعد عفو الخديوى عنه فشرع فى كتابة
الوقائع الرسمية بالفظ فحل ومعنى أنيق وترا كيب كعقود الجمان فى
عهد كانت اللغة فيه تراوح بين الموت والحياة وكان الذى يفتح
الله عليه بسجمة يعد نفسه من ائمة المنشئين والذى يفتح الله عليه
بنوع بديعى يعد نفسه من ائمة الباقين فحل الشيخ عقدة الالسن
وأطاق فى رياض المعانى طائر الفكر بعد ما هدم صروح البديعيين
ولم ير الفقيد أهلا لمساعدته فى القيام بذلك العمل الجليل غير
الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الكريم - امان فصارا ينزندان على الجمل
الركيكة والترا كيب الفاسدة ويرشدان الحكومة الى محجة الصواب
وكانت الحكومة فى ذلك العهد تعمل برأيهما ثم عيذه الحكومة
قاضيا فأسس للعدل دارا ورفع للقانون منارا وما رأيت قاضيا يحكم

بالقانون على القانون سواء ولما أسكت الله نامة المفسدين انتدبه
الحكومة مفتيا للديار المصرية فأظهر فيها من الفتاوى العقلية
الشرعية ما جعل علماء الدين ينظرون إليه بعين الحقد
وصل الى ذلك المقام الذي هو نهاية الرفرة فكثرت حساده
فيكان كل يوم في جدال وكل آن في نضال وكان الاستاذ رحمه الله
يرى ان التمسك بالجديد ضرب من الظنون وكانت العلماء ترى
أن التمسك بالجديد ضرب من الجنون فخذل العلم الجهل وأخذ له
بناصره . ثم رأى أن يفسر كتاب الله تفسيراً معقولا يدع للتاريخ
فيه مجالا ويوفق بين الحوادث الدينية والحوادث التاريخية لينزل
الشك عن فيكار العامة والسامة فأنكرت العلماء تفسيره كما ينكر
الاعمى ضوء القمر ثم قام هانوتو وزير خارجية فرنسا وتحركك
بالدين الاسلامي وطعن فيه طعنا كاد يذهب بحقيقته فتحفز الاستاذ
كالأسد من مريضه وسدد قامه في صدر ذلك الوزير فثاب اليه
رشده وبان له الخيط الابيض من الخيط الاسود كل ذلك والعلماء
بين الولائم والوضائم يحرفون كتاب الله ويخلقون الاحاديث أملا
في إرضاء الجهلاء . ثم كتب صاحب الجامعة شيئا من فلسفة ابن
رشد فغابت عنه الحقيقة فأنكرها عليه الاستاذ وكشف النقاب
عنها ثم قام يحارب البسيع كالسجود لغير الله والتبرك بالأحجار
وزبارة القبور والتمسك بما تساهل فيه السلف فقامت قيامة

الجهلاء ورموه بكل كلمة عوراء وهو لا يصدده عن سبيل الله معارض ولا يوقفه عند حده كاشح ولما عجزت العلماء عن اثبات الله بالعقل ألف رسالة في التوحيد فلو كان الله سبحانه وتعالى جسمًا (تنزه عن ذلك) للمسته الأيدي ولو كان له حيز (تقدست أسماؤه) لرأته الأبصار. فلما قرأ الرسالة بهض حساده قال انى آمنت بالله ورسوله ولكن أخشى أن يكون المفتى خدعنى ببلاغته وقام وكتب الى المفتى كتابا يحمده فيه على خدمة الدين ويعتذر له عما فرط منه فقل الاستاذ الحكيم رحمه الله الحمد لله الذى أوجد من يحنى اذا علم ويكرهنى اذا جهل. ذاكيم هو الاستاذ الكريم الذى غاب عنا ظله ولم يغب ذكره. كان الفقيد رحمه الله يحن الى الفقير ويعتذر الجاهلاء ولا يخرجهم الذم من الحلم الى الغضب. وكان فى المضاء كالسيف يقطع ولا يقطع ولقد مرت عليه أيام كسافة الغراب الغدافى ومسائل كذنب الضب فتحمل من الأيام ما لو تحمله أحد لصار هباء منثورا. وماذا يفعل الانسان اذا أوجده الطيبة بين عدوين كلما غاب عدو حضر عدو. وكان الاستاذ اذا حضر فى مجلس عقد الجلال السن القوم فلا تسمع غير قوله ولا ترى غير وجه منير وكان يميل الى المحاضرات والنكات

المختار من نثره

١

الدين الاسلامي أو الاسلام

هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاء عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف في التأويل ولا ميل مع الشيع وانى مجمله في هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد في التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه ، وما سندی فيما أقول الا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين :

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين . فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه وان لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موّجدهم وانهم له واليه راجعون : « قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفواً احد » وما ورد من ألفاظ الوجه واليدن والاستواء ونحوها له معان

عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتهبوا في شيء منها، وإن
ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من
العالمين وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم
وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال على سنة له في
ذلك سنهافي علمه الأزلي الذي لا يعتريه التبدل ولا يدنونه التغيير
وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك إلا
ببرهان ينتهي في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات
التي لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تعلموه كاستحالة الجمع بين
النقيضين أو ارتفاعهما معاً أو وجوب أن الشكل أعظم من الجزء
مثلاً، وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون أن أنفسهم نفعا
ولا ضرراً، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون وأن ما يجربه على
على أيديهم فأنما هو باذن خاص وبتمسير خاص في موضع خاص
لحكمة خاصة، ولا يعرف شأن الله في شيء من هذا إلا ببرهان
كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب «والله أخرجكم من بطون
أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة
لعلكم تشكرون» والشكر عند العرب معروف أنه تصريف
النعمة فيما كان الانعام بها لأجله. دل بمثل هذا على أن الله وهبنا
من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه في وجوهه بمحض

تلك الموهبة ، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها . واما
ماتخير فيه مداركنا وتقصر دونه قوائنا وتشعر فيه أنفسنا بساطان
يقهرها أو ناصر يدها فيما أدركها المعجز عنه ، على أنه فوق ماتعرف
من القوى المسخرة لها وكان لابد من الخضوع له والرجوع اليه
والاستعانة به ؛ فذلك انما يرد الى الله وحده . فلا يجوز أن
تخشع إلا له ولا ان تعلمن الا اليه . وكذلك جعل شأنها فيما تخافه
وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الآخرة لا يسوغ لها ان تلجأ الى
أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات ولا في غفران أفعالها
من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين

اجتمعت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها في
الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة
تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التي تنفك عن تلك
المقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت
تلازم تلك الاوهام ونخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في
المعبودين وعليهم ، وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه
من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لاحد إلا لخالق السموات
والأرض وقاهر الناس أجمعين وأصبح لكل أحد بل فرض عليه ان
يقول كما قال ابراهيم : « اني وجهت وجهي للذي فطر السموات
والأرض خنيفاً وما انا من المشركين » وكما أمر رسول الله صلى

الله عليه وسلم أن يقول : « ان صلاتي وتسبيحي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .
تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة وأطلقت إرادته من القيود التي كانت تعقدها بإرادة غيره سواء كانت ارادة بشرية ظن انها شعبة من الارادة الالهية أو انها هي كإرادة الرؤساء والمسيطرين أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن في القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وافنكت عزيمة من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنه والعرفاء وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتهلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين انهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاده ، وبالجملة فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين ، صار الانسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حرّاً من العبودية لكل ما سواه ، فكان له من الحق ما للحر على الحر لا على الحق ولا وضع ، ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين الناس الا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل الا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء . ثم هذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة ، وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لأبعمله وخدمته .

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « وان ليس للانسان الا ما سعى ، وأباح لكل أحد ان يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشراباً ولباساً وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل في ولايته أو ما تمدى ضرره الى غيره ، وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم الا حقاً محترماً تصطدم به .

انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر فبددت فيآلقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم . صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها . كما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هزيمة من سدنة هياكل الوهم : « ثم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة . » علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على ان يهتدى بالعلم والأعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طريق البحث هادون .

صرّح في وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول
 فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين
 القائلين ليأخذوا بما عرفوا أحسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه،
 ومال على الرؤساء فازلهم من مستو كانوا فيه يأمرّون وينهون
 ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون
 بمن أعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا
 ما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه
 عنهم الأبناء وسجل الحق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين
 ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميّا
 لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق
 في التمييز والفترة سيان ، بل لللاحق من علم الأحوال الماضية
 واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون
 ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك
 الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة
 لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما اقترفه سلفهم :
 « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وان
 أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي وسعت كل شيء
 لن تضيق عن دائب .

عاب أرباب الأديان في انتقائهم أثر آباءهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » « أنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون » فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل في منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هياه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها ، وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية في أوروبا انما قامت على هذين الأصلين . فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد ان عرف العدد الكثير أنفسهم وان لهم حقاً في تصريف اختياراتهم وفي طلب الحقائق بمعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا في الجبل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الازمان .

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان

من الحجر دلى عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية استثناءً
 من أوائل الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنا به على كل من لم يلبس
 لباسهم ولم يسلك مسالكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على
 العامة أو أباحوا لهم ان يقرأوا قطعاً من تلك الكتب ، لكن على
 شريطة ان لا يفهموها ولأن يظلموا أنظارهم الى ما رمى اليه . ثم
 خالوا في ذلك فحرموا انفسهم أيضاً منية الفهم الا قليلاً ورموا
 عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوات ووقفوا كما
 وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبداً بالاصوات والحروف فدهبوا
 بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال : « ومنهم
 أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وإن هم الا يظنون » مثل الذين
 حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم
 الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الضالين » اما الاماني
 ففسرت بالقرآآت والتلاوات اي لا يعلمون منه الا أن يتلوه واذا
 ظنوا انهم على شيء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان
 على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً ، واذا عن لاحد ان يبين شيئاً
 من أحكامه وقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس
 منه على يئنة واعتسف في التأويل وقال هذا من عند الله « فويل
 للذين يكتبون الكتاب بأيهم ثم يقولون هذا من عند الله يشتروا
 به ثمناً قليلاً » اما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهي بين أيديهم

بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن اعينهم اعلام الهداية التي نصبت بانزالها فحق عليهم ذلك المثل الذي اظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية ان تظهر به مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء والتعب وقصم الظهر وانهار للنفس: وما اشنع شأن قوم انقلب بهم الحال فما كان سبباً في اسعادهم وهو التنزيل والشرعة أصبح سبباً في شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا التقرير ونحوه وبال دعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر في القرآن العزيز .

فرض الاسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه لهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيتها وقت من الاوقات

جاء الاسلام والناس شيع في الدين وان كانوا إلا قليلا في جانب عن اليقين يتنابدون ويتلاعنون ويزعمون في ذلك انهم بحمل الله مستسكون فرقة وتحالف وشغب يظنونها في سبيل الله اقوى سبب . انكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحاً لا يحتمل الريبة .

بان دين الله في جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد. قال
 الله : « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب
 الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » « ما كان ابراهيم يهوديا ولا
 نصرانيا ولا مكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » « شرع
 لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم
 وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين
 ما تدعوهم اليه » « قل يا اهل الكتاب تمالوا الى كلمة سواء بيننا
 وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا
 اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وكثير
 من ذلك يطول ايراده في هذه الوريقات . والآيات الكريمة التي
 تعيب على اهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور
 الحجة واستقامة الحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل
 من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته . نص الكتاب على ان دين الله
 في جميع الازمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده
 بالعبودية وطاعته فيما امر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد
 لسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التي ارسلها على المصطفين
 من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به ، وان هذا
 المعنى من الدين هو أصل الذي يرجع اليه عنده بوجوب ربح التخالف
 وهو الميزان الذي توزن به الافعال عند التناصف وان اللجاج

والمرء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية في الانعام على البشرية ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها وسار الكافة في مرشدهم اخوانا بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين .

اما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها فصدره رحمة الله ورأفته في إيتاء كل امة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان وكما جرت سنته وهورب العالمين بالتدريج في تربية الاشخاص من خارج من بطن امه لا يعلم شيئا الى راشد في عقله كامل في نشأته يمزق الحجب بفكره ويواصل اسرار السكون ، بنظره كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الامم . فلم يكن من شأن الانسان في جملته ونوعه ان يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ به من السكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته في النمو قائما على ماقررتة الفطرية الالهية في شأن أفراده وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف أهل النظر في بيان ما تفرع منه في علوم وضمت للبحث في الاجتماع البشري خاصة فلا تطيل الكلام فيه هنا .

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في

طور أشبه بطور الطفولية للناس في الحديث العهد بالوجود لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمه وإن يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يليق إليه فيما يصله بغيره اللهم الا إذا اتصل إلى فيه بطعام أو تسنده في قعود أو قيام فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان أو يرقى إليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالاقوام وهم عيال الله سيرة الوالد مع ولده في سداجة السن لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو يبصره ، فأخذتهم بالأوامر الصادقة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة وجماعتهم فيها على مبلغ الاستطاعة ، كلفتهم بمعقول المعنى جلي الغاية وإن لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم إلى مرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه .

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتحالفت واتفقت ، وذوقت من الأيام آلاما ، وتقلب في السعادة والشقاء أياما وأياما ، ووجدت النفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعورا أدق من الحس

وأدخل في الوجدان لا يرتفع في الجملة عما تشعربه قلوب النساء
أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف ويناجي
المراحم ويستعطف الالهواء ويحدث خطرات القلوب ، فشرع
للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بمجملاتها ويوجه
وجوههم نحو المسكوت الاعلى ، ويقتضى من صاحب الحق ان
لا يطالب به ولو بحق ، ويفلق أبواب السماء في وجوه الأغنياء وما
ينحو نحو ذلك مما هو معروف . وسن للناس سنناً في عبادة الله
تتفق مع ما كانوا عليه وما دعاهم اليه ، فلاقى من تعلق النفوس
بدعوته ما أصح من فاسدها وداوى من أمرها . ثم لم يمض عليه
بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتمالها ، وضاعت
الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووقر في
الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فهب القائلون عليه
أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان ومزاحمة أهل الترف في جمع
الاموال وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضفوا
عليه ما شاء الهوى من الأباطيل . هذا كان شأنهم في السجايا
والأعمال ، نسوا طهارته وباعوا نزاهته أما في العقائد فنفرقوا
شيئاً وأحدثوا بدعاً ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من
أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من
النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الاكوان والخطر على الافكار ان

تنفذ الى شىء من سرائر الخلقه فصرحوا بان لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذاهب الى ذلك ان يأخذ به نفسه بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وأفضى الغلو في ذلك بالانفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للالتزام ببعض قضايا الدين فتقوض الأصل وتخرمت العلائق بين الأهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام، وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام.

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان أشده وأعدته الحوادث الماضية الى رشده فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والاحساس فى إرشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخرية وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموه عليه وبرهن على ان دين الله فى جميع الاجيال واحد ومشيمته فى اصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وان رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الارواح، وان الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب. وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره. ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعد كلا الأمرين طهراً مطلوباً. وجعل روح العبادة الاخلاص وان ما فرض من الاعمال انما هو لما أوجب

من التطبع بصالح الممتلكات : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »
 « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير
 منوعا الا المصلين » ورفع الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر
 بل ربما فضله عليه . وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح
 الهادي للرجل الرشيد فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة
 وصرح بما لا يقبل التأويل ان في ذلك رضا الله وشكر نعمته وان
 الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعي في
 صلاح الدنيا .

التفت الى أهل العناد فقال لهم : « قل هاتوا برهانكم ان
 كنتم صادقين » وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعموا
 من اصول اليقين » ونص على أن التفرق بغي وخروج عن سبيل
 الحق المبين . ولم يقف في ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة
 بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها في العمل فاباح للمسلم ان
 يتزوج من اهل الكتاب وسوء مؤاكلتهم وأوصى ان تكون مجادلتهم
 بالتي هي احسن . ومن المعلوم ان المحاسنة هي رسول المحبة وعقد
 الالفة والمصاهرة انما تكون بعد التجاب بين اهل الزوجين والارتباط
 بينهما بروابط الائتلاف . ثم اخذ المهدى على المسلمين ان يدافعوا
 عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن انفسهم . ونص
 على ان لهم مالنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا

زهيداً يقدمونه من مالهم ، ونهى بعد ذلك عن كل اكراف الدين وطيب قلوب المؤمنين في قوله : « بأياها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » فعليهم الدعوة الى الخير بالتي هي احسن وليس لهم ولا عليهم ان يستعملوا اى ضرب من ضروب القوة في الجمل على الاسلام فان نوره جدير ان يخترق القلوب وليست الآية في الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بهد القيام به ولو اريد ذلك لكان التعبير « على كل واحد منكم بنفسه الا » عليكم انفسكم كما هو ظاهر لكل عربى : كل ذلك ليرشد الناس الى ان الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم الى الخير في جميع نواحيه .

رفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله في الخلقة وشرف اندراجها في النوع الانساني بالجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلاغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بزيايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن ان تلحق غبارهم — فأماوا بذلك الارواح في معظم الامم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً .

هذه عبادات الاسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق

على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه وتأنث مع المروف
عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحر كه وسكون
ودعاء وتسبيح وتنظيم وكلها تصدر عند ذلك الشعور لسلطان
الامر الالهى الذى يغمر القوة البشريه ويستغرق الحول فتخشع
له القلوب وتستخذى له النفوس وليس فيها شىء يملو على متناول
العقل الا نحو تحديد عدد الركعات أو رمى الجرات على أنه مما
يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر البعث
واستحالة المعنى مما يخل بالاصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم
والفكير . اما الصوم وحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف
به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها
« كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »
اما اعمال الحج فتذكير للانسان باريات حاجاته وتعمده له بتمثيل
المساواة بين افراده ولوفى العمر مره يرتفع فيها الامتياز بين الغنى
والفقير والصملوك والأمر ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة
الابدان متجردين عن آثار الصنعة وجدت بينهم المبودية لله رب
العلمين كل ذلك مع استيفائهم فى الطواف والسمى والمواقف . ولمس
الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين وهو الذى سماهم
المسلمين واستقرار تمييزهم على ان لا شىء من تلك البقايا الشريفة
يضر أو ينفع ، وشمار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل « الله اكبر »

ابن هذا كله مما تجدد في عبادات اقوام آخرين يفضل فيها العقل
 ويتمذر معها خلوص السر للتزبه والتوحيد كشف الاسلام
 عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم)
 والكون الصغير (الانسان) فقرر ان آيات الله الكبرى في صنع العالم
 انما يجرى امرها على السنن الالهية التي قدرها الله في علمه الازلي
 لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية غير انه لا يجوز ان يفل شأن
 الله فيها بل ينبغي ان يحى ذكره عند رؤيتها فند جاء على لسان النبي
 صلى الله عليه وسلم ان الشمس والفر آيتان في آيات الله لا يخفان
 لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رايتم ذلك فأذكر الله وفيه التصريح
 بان جميع آيات الكون تجري على نظام واحد لا يقضى فيه الا
 العناية الازلية على السنن التي أقامته عليها . ثم اماط اللثام عن حال
 الانسان في النعم التي يتمتع بها الاشخاص أو الأمم والمصائب التي
 يرزأون بها ففصل بين الاميريين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما
 . فاما النعم التي يتمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه الحياة والزايا
 التي يزرأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو
 الفقر والضعفة والضف والفقد قد لا يكون كاسبها اوجالها ما عليه
 الشخص في سيرته من استقامة وعوج او طاعة وعصيان . وكثيرا
 ما تأمل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع
 الحياة الدنيا انظارا لهم حتى يتلقاهم ما عدلهم من العذاب المقيم

في الحياة الأخرى . وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده
وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة
غبروا عن خلاصهم في التسليم بقولهم « انا لله وانا اليه راجعون »
فلا غضب زيدولا رضا عمرو ولا اخلاص سريره ولا فساد عمل
مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة اللهم
الافيا بالعمل ارتباط المسبب بالمسبب على جارى العاده كارتباط
الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم وكارتباط
الثروة بحسن التدبير في الاغاب والمكانة عند الناس بالسعى في
مصالحهم على الاكثر ومما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر
اما شأن الامم فليس على ذلك . فان الروح الذى اودعه الله جميع
شرائعه الآلهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب
الاهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل أمر من
بابه وطلب كل رغبة من اسبابها وحفظ الامانه واستشعار الاخوة
والنعمان على البر والنماص في الخير والشر وغير ذلك من أصول
الفضائل - ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها
في هذه الدنيا قبل الآخرة « من برد ثواب الدنيا نؤته منها » ولن
يسلب عنها نعمته مادام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوته
وينقصها بضعفه ، حتى اذا فارقتها ذهبت السعادة على أثره ، وتبعته
راحته الى مقره واستبدل الله عزرة القوم بالذل وكثرهم بالقل

ونعينهم بالشقاء وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين
 فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون ، « واذا أردنا أن نهلك قرية
 أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليه القول فدمرناها تدميراً »
 أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ثم لا ينفعهم إلا نين ولا
 يحربهم البكا ، ولا يهديهم ما بقي من صور الاعمال ولا يستجاب
 منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجؤا إلى ذلك الروح
 الاكرم فيستنزلوه في سماء الرحمة يرسل الفكر والذكر والصبر
 والشكر : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « سنة
 في الدين خلوا من قبل ولن نجد لسنة الله تبديلاً » وما أجل ما قاله
 العباس بن عبد المطلب في استسقاائه . « اللهم أنه لم ينزل بلاء إلا
 بذنب ولم يرفع إلا بتوبة » على هذه السنن جرى سلف الامة ،
 فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه المقائد السامية وياخذ نفسه
 بما يتبعها من الاعمال الجارية كان غيره يظن انه يزول الارض
 بدعائه ويثق الفلك ببيكائه وهو ولع باهوائه ماض في غلوائه و
 يغنى عنه ظنه من الحق شيئاً

حث القرآن على التعاليم وارشاد الامامة والأمر بالمعروف
 والنهي عن المنكر وأوائك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين
 تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأوائك لهم عذاب
 عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فاما الذين أسود

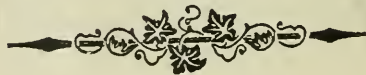
وجوهمهم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا المذاب بما كنتم تكفرون .
وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها والله مافى
السموات وما فى الارض والى الله ترجع الامور »

ثم بعد هذا الوعيد الذى يزجج المفرطين ونحق به كلمة المذاب
على المختلفين والمقصدين أبرز حال الأمارين بالمعروف والنهي عن
عن المنكر فى أجل مظهر يمكن ان تظهر فيه حال أمة فقال :
« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن
المنكر وتؤمنون بالله » فقدم ذكر الامر بالمعروف والنهي عن
المنكر على الايمان فى هذه الآية . مع أن الايمان هو الاصل الذى
تقدم عليه اعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها اثنان الخير تشرىفاً
لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيهاً على انها حفاظ
الايمان وملاك امره . ثم شد بالانكار على قوم اغفلوها واهل دين
اهملوها فقال . « لعن الله الذين كفروا ومن بنى اسرائيل على لسان
داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا
لا يتناهون عن المنكر ففعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » فقذف
عليهم اللعنة وهى اشد ما عنون الله به مقة وغضبه

فرض الاسلام للفقراء فى اموال الاغنياء حقاً معلوماً فيفيض
به الآخرون على الاولين سداً لاجابة المعدم وتفريجاً لكربة الغارم
وتحريراً لرقاب المستعبدين وتيسيراً لانباء السبيل ولم يبحث شئ

حثة علي الانفاق من الاموال في سبيل الخير وكثيرا ما جعله عنوان
 الايمان ودليل الاهتداء الي الصراط المستقيم . فاستل بذلك ضغائن
 اهل الفاقة ومحض صدورهم من الاحقاد وعلى من فضاهم الله عليهم
 في الرزق . وأشعر قلوب اولئك بحبة هؤلاء وساق الرحمة في نفوس
 هؤلاء على اولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمانينة في نفوس
 الناس اجمعين : وای دراء لا مراض الاجتماع انجع من هذا :
 « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . »
 اغلق الاسلام بابي الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال
 بخرمه الحر والمقامرة والربا تحريما باتا لا هوادة فيه . لم يدع الاسلام
 بعد ما قررنا اصلا من اصول الفضائل الا اتى عليه ولا ما من امهات
 الصالحات الاحياها ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررناها فاستجمع
 للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل
 في النظر وما به صلاح السجاياء واستقامة الطبع وما فيه انهاض
 العزائم الى العمل وسوقها في سبل السعي . ومن يتل القرآن حق
 تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخيرة لا تنفنى . هل بعد
 الرشده وصاية وبعد اكتمال العقل ولالية ؟ كلا ، قد تبين الرشده من
 النى ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته ايدي الرحمة بلوغ
 الغاية من المآدين . لهذا ختمت للنبيات بنبوة محمد صلى الله عليه
 وسلم وانتهت الرسائل برسالاته كما رح بذلك الكتاب وايدته

السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان
العالم وصل اليه العلم الى ان لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم الفاتم
بها انه يحدث عن الله بشرع او يصدع عن وحيه بأمر، هكذا
يصدق نبأ الغيب؟ «ما كان محمداً بالحد من رجالكم وليكن رسول
الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء علماً»



البخيل



للكاتب الاجتماعي الكبير عباس افندي محمود العقاد

كان في من أعرف من الناس رجل لا يعرف الناس أنجيل
منه . كان هذا الرجل اذا اشتبهت نفسه بشيء مما تشتهيهِ الأَنفس
من طيبات المأكَل والملبس أخرج القرش من كيسه فنظر اليه

نظرة الماشق المدنف الى معشوقه ثم رده الى الكيس وقال :
 هذا القرش لو أضيف اليه تسعة وتسعون مثله لصار جنبها ، والجنيه
 بدد الجنيه يجلب الثروة العريضة ويجمع المال الحير ^(١) وهبني تهاونت
 بانفاقه اليوم وسمحت نفسي به فلا آمن ان تسخر بغيره غدا . فانما
 القروش كلها واحدة في القيمة وليس قرش بأغلى من قرش والشهوات
 حاضرة في كل وقت ، فكأنني انفقت اليوم بانفاني هذا القرش
 جميع ما سوف أملكه وأدخره من المال . وفتحت على نفسي
 باب الفاقة الدائمة والموز المستقر ، طأوعه لشهوة حمقاء ، إن أنا وقتها ^(٢)
 الآن مانت واسترحت منها وان آتيتها على مندعوني اليه كل ساعة
 كنت كمن يرى الوقود في النار ليخمد بها ، وكنت كمن يشتهي
 الفقر ويتمنى الاعدام وتلك والله الحماقة بدينها
 وكان اذا تم عنده الجنيه على هذه الكيفية أسقطه في صندوق
 ثقب له ثقباً في غطاءه ولم يحبل له مفكاحاً لئلا يعود الفتح والاقفال
 ويجرأ على ذلك الذخر بالكشف والابتذال وخوفاً من أن تراوده
 نفسه لفرط شغفه بالذهب على . من جنيه من تلك الجنيهات فيجر
 المس الى التجريك ويجر التجريك الى الأخذ فلاخراج فالصرف
 وهناك اللطامة العظمى والداهية الشؤمى ، ويقول ان سلماً أنت

(١) مال احير أى كثير جدا

(٢) ردغتها

واقف على قتله حرى أن تصل يوما الى أسفله . ومالك ان لا تغلق
 الثمر من بابه وترتفع الفتق من أوله وتتلأفى الأصر في بدايته . بل
 أن تتمذرك عليك نهايته . وكان يرى الفقر من بعيد فيظنه أدنى
 اليه من حبل الوريد . فالفقر عنده محيط بكل مكان ، شامل لكل
 زمان ، ومادام فى الارض درهم فهو فقير اليه ومادام فقير فالأطمان
 محال عليه . ولقد أفتنا أن نسمى البخلاء عبيد الذهب وكان الا صوب
 ان نسميهم عبيد الفقر لانهم يضحون الذهب للفقر . وهم يحبون
 للفقر ويخشونه . فيعيشون عيشة المعدمين والبؤساء ، مع تمكنهم
 من الأثرة ويخشونه فيتقونه ، وعندهم له من كل دينار وقا .

فاذا سقط الجنية فى ذلك الصندوق . . لابل فى تلك الحفرة
 كانت تلك السقطة آخر عهده بالهواء والنور ، آخر عهده بالهبات
 والبيوع ، وآخر عهده بالأنامل والكفوف ، وهوى من ذلك الصندوق
 فى منجم كالمنجم الذي كان فيه . وشتان المهد والحمد . ومات موته
 لا تنشر منها الا يد الوارث ان شاء الله . وقد فعل

ولو أتيح لملك الجنيات أن تتحدت فى ذلك السجن المطبق
 عن ماضيها كما يفعل السجناء اذن لسميت من أحاديثها العجب
 للعجاب . بين جنية رحالة جراب ، يتنقل بك من السويد الى الكاب
 وينبؤك عن الاعاجم تارة وتارة عن الاعراب . وجنية فرار غدار
 ما سلم بالليل الا ودع بالنهار ، وجنية نشأ فى الحانات ، وللوأخير

فاسترق رنته من رنات الكؤوس والقوارير. وجنيهه عاشر الابرياء
والجناة، ورافق النساء والفواة وجاور المعوزين والسراة ومصر
بالمساكين والعماة. وطف من الاصدقاء الى الاصدقاء ومن العداة
الى العداة وكلها تشهد شهادة لا بهتان فيها أن مالكمها الاخير أقدر
من قنص الدينار، من الابرار والفعجار، وأخبر من صاد النصار،
من الشطار والاحبار، وأول من راض هذا الممدن السيار على السكينة
والقرار.

ولو أتيت لك ان تشهد ذلك البخيل وقد مثل عند صندوقه
وأجأته الضرورة الى الاستمداد منه — وناهيك بها من ضرورة —
اذن لحسبت انك تشهد في جنح الليل الاعكر سارقا يندش القبور
عن اكفانها، وقد تمكه الهلع من حراسها وسكانها، أو لحسبت
انك تشهد كاهنا متحنثا يقوم عند صندوق النذور بهم بأن يمد
يده اليه فيخرج من أن يستحل ودائمه لئلا يحل عليه قصاص الله
ويحقيق به غضبه. فان الحت عليه الحاجة أقسم أن لن ينام ولن يهدأ
او يرد الى الصندوق ما استعاره منه وقد لا تجد بين ألف كاهن كاهنا
واحدا يقيم هذا القسم ويبر به ولكنك لا تجد بين ألف بخيل
بخيلا واحدا يحث في هذه المين

ففي وقفة من تليق الوقفات اقترض البخيل من صندوق جنيتها
وأتى بالطلاق من عرسه ان لا يدخل البيت الا واجنيه معه وذهب

الى السوق فكسح فيها ما كسح واحتال حتى استرجع الجنيه
نصفاً ذهباً والنصف الباقي قطعة فضية وكانت تلك عادته اذا ابدل
الفضة بالذهب كي تكون كل قطعة صحيحة صماماً حديدياً يحبس
فيها ما تحتويه من القطع الصغيرة أن تنذر وتسرّب الى أحداها
نزعاً الجود ووساوس النفس الامارة بالجيل والخبيث بسى الظن
بنفسه ويترهبها بالسوء عن القليل الطفيف مداعبة لها وادلالا عليها
والافتقار وثوق المؤمن بآيمانه أنه لو انما كانت^(١) عليه نقود المشرقين
والمغربين دراهم ودوانق وسحابت لما سولت له نفسه أن ينفق
مسحتوناً منها في غير ما يدفع التالف جوعاً والهلاك عرياً فما تمهل حين
صار الجنيه في يده الا ريث أن اهرع الى الصير في فناوله اياه مفرقاً
وقال اعطني به جنيها ذهباً

قال له الصير في هات خمس مليمات

قال البخيل : وعلام هذه المليمات الخمسة : انك تأخذ هذا
الجعل من الناس على أن تنقدهم الفضة بدل الذهب وأنا أعطيك
فضة واطلب ذهباً ، أفلا تحمد الله على اننى صفحت لك عن حقي
وجئتك ساعياً الى مكانك ؟

فما زاد الصير في على ان وكزه في صدره وكز
قذفت به الى الجانب الآخر من الطريق . فما تحمل الرجل ولا

تأفف . بل وقف حيث قذفت به الكرة صامتا . والصير في لا يشك في انه ينتظر ان يمر الشرطى فيستعد به عليه . ثم شرطى وثنان وثالث لا يدعوه ولا يبرح مكانه . والناس يظنون انه يحدث نفسه بالانقضاء على الصير في فيوسمه ضرباً ولكما فيخطئونه وبلومونه وينصحون له بأن يعتمر اليه ويسترضيه . وبيناهو كذلك أقبل على الصير في شيخ رينى ، فكذب البخيل كل ظن وعاجل الشيخ فكان أسبق من يده الى جيبه وصاح به : رويدك يا هذا . انك تريد أن تبدل جنيتها وهذا اليهودى يتقاضاك خمسة مملات ، وانا اقنع . نك ملامي ، فهك الفضة وهات الذهب . ولتفت الى الصير في فقال بارك الله فيك فقد تيمضت لنا رزقا كنا فى غفلة عنه ولا يزال هذا دأبنا كلما اجتمع جنينه عندنا ، ثم ولى والصير في يكاد ينشق عن جلده من الغيظ والناس يضحكون وكأننى بك أيها القارىء تظن ان الرجل آلى بالطلاق وحرص ان لا يمين فيه وفاء لزوجته وضماً بذات فراشه واحتفاظاً بأمر بنيته فايك ان تظلم الرجل بهذا ، فان الاحتفاظ والضمن بشيء غير المال ضعف يرباً بنفسه عنه . ولكنه تحرى أفدح لائمان كفارة وأصعبها كلفة فرأى أن كفارة الحلف بالله سهلة وربما كان فى الصيام من الاقتصاد ما يفريه بالحلت كلما أقسم بالله . فاختار يمين الطلاق يهدد نفسه به ويخوفها من مؤخر المداق ومؤونة

الاولاد ومصاريف الافضاياء، ثم لا بد له من زوجة تكفيه نفقة الخادم وشراء الطعام من السوق . وهذه الزوجة لا بد لها من مهر قل أو كثير ، دع عنك الاعراس وما تستدعيه من الخروج عن الانفاق ليلة أو ليلتين . فاذا آلى بالطلاق ذكر كل ذلك وأكثر منه فكان قيذا لا يستطيع منه فكاكا . ولا يفوته مع هذا ان يصانع نفسه بأنه من القابضين على دينهم الذين يجتنبون حدود الله ولا يلبسون يمين كيمين الطلاق . والحقيقة انه لا يجتنب حدود الله الا لان اجتنابها يوافق هواه . ولو كلفه خوف الطلاق معشار ما يصون من ماله لجار عن كل حد الله وللخلق . وعلى أنه لم يضطر يوما الى امتحان دينه ولم يقف بين ارتضاء الطلاق وجرائره وانتهاك حدود الله وأوامره لانه لم يكذب على صندوقه قط . فاذا استعار منه في الصباح سدده في الحساب في المساء ومرض هذا البخيل مرض الموت فجزع جزعا شديدا ، وكان جزعه لانه سيموت عن أقل من عشرة آلاف جنيه كاملة وكان ذلك كل أربه من الحياة . فاستحضر الطبيب بمد أن نهكته العلة ودب السقم في أوصاله وعظامه ، فأمره بأن يتعاطى دواء وان يقصر طعامه على لحم الطيور . وكان صاحبنا على مذهب النباتيين اقتصادا لا فلسفة . فتملص يحايل الداء ويتماق الطبيب عسى أن يمدل عن وصفته ، والداء يأبى الا لحوم الطير والطبيب

• مصر على رأيه • ولما كان أربه في العيش لم ينته والعشرة الآلاف
لم تكمل فقد رضى أهون الشرين وأصاخ لقول الطيب وصار
ياكل كل ما أمره وهو يلهف ويتغصص ويتبع كل لقمة بزدردها
بعمالة حساب وهل أصعب في الهضم من حساب وأثقل على المعدة
من الأرقام الصماء ؟ ولم يزل يقول بكل أكلة : الله الله على
الصحة ! لو كنت الآن صحيحا أما كانت تكفيني أكلة بدرهم !
فلم يسهفه الدواء ولم يرأه الغذاء • وما ذاك إلا لأن الطيب داواه
بالطب الذى يداوى به الناس ووصف له ما كان يصفه لكل
مريض مصاب بثلث مرضة ، ونسى انه يداوى دائنين لاداء واحد
وفاته ان دائنين أحدهما مزمن والآخر طارئ لا يصلحان بفرد
دواء ، ولو سمعه كيف كان يأسف على الصحة ولماذا كان يأسف
عليها لعلم ان صحة هذه البنية غير صحة سائر البنى وان لها
مرضا غير أمراضها وان الغذاء الذى ظن انه يشفيه ويقويه
قد حزم من بدنه وأضاف مرضا على مرضه • وقد مات المسكين
بدائه ذاك ، وما أحسبه ندم على شيء وهو يفارق الدنيا ندمه
على تلك الدراهم التى اطاع فيها الطبيب جزافا • واذا عاينه لو
قد عصاه فلم يفقد سوى حياته ؟ ؟ ؟

ولهذا البخيل نواذر عديدة يذكرها معارفه فكان لا ينقضى له
يوم الا على نادرة ظريفة مع بائع أوزميل أو شريك أو مدين

وكننت أستظرف ، فأتودد اليه وأشايه على مذهبه فلا اقتصد في
اطراء الاقتصاد ولا أبخل بكلمة في مدح البخل واذا فاوضته في
الادب أو طامت معه في الكتب لم يكن أحقر على لساني من
اسماء هرم ابن سنان وحاتم طي ، وكمب بن مامة ومعن ابن زائدة
وأبي دلف وغيرهم من أجراد العرب فأشنع بهم وأسأل الله
السلامة مثل مصيبتهم في عقولهم وأموالهم أقول له ما أجدر
مادرا بتمثال من الذهب ، فيتمول أي وأبي اولا ما في ذلك من
الاسراف ، ولشد ما كان يتهل وجهه حين أتلو عليه نكبة
البرامكة فيقول حيا الله الرشيد ما أحكمه وأحزمه ، وقبحهم
الله ما أخرقهم وأحقهم . بادوا وخلفوا وراءهم للناس مثلا
سيئا وقدوة ذميمة . وكانت له في أسباب نكبتهم فلسفة خاصة
لم يفتح الله بها على أحد قبله . يقول لك لا تصدق ما يتشدد
به كذبة المؤرخين عن أسباب نكبة البرامكة . فوالله ما نكبتهم
ولا قتلهم الا الاسراف والتبذير . أسرفوا في البذخ وبذرو
أموالهم في الصلوات فسد لهم الموصول وسخط عليهم المحروم ،
فترصدت لهم العميون وتوغرت عليهم الصدور واستعظم الرشيد
عليهم ما هم فيه فمثل بهم ذلك التمثيل وفجأهم في ارواحهم وأموالهم
وآمالهم فلم ينف عنهم صنائعهم وذووهم . ولو أنهم بخلوا لنامت
عنهم الا نظار وخرست عنهم الأفواه ، لأن من نعم الله على

البخلاء انه يجمع لهم بين مزيقي الغنى والفقر ، فلهم من الغنى المال الكثير ولهم من الفقر الامان من حسد الحاسدين . ولهم من الغنى القدرة على ما يبتغون ومن الفقر القناعة بيسير ما ياكلون ويلبسون وهما مزيقان لا يحممهما الله الا لمن رضى عنه من عباده

بيد اننى في صحبتى له كنت لا أستطيع ساءة أن أفكر بأنى صاحب انسانا له على مثل الذى لى عليه ، وكنت أحمل نفسى على ان تصدق أنه من البشر كما تراه عيى فلا تذعن . وكيف وهى لا تحس بأذى اختلاف بين ملاطفتى اياه وملاطفتى الكلاب أو للقرد الا كيف ليأتس بـ وينفر منى . ولقد ضل والله من يتألف الكلاب والقرود ويهوبروثة الحيوانات العجيبة وعند البخلاء يضمهم واياه جنس واحد ومدينة واحدة فلا ية الفهم ولا يخف الى رؤيتهم . أليس لو حاكك رجل فاخبرك بان فى مدينة كذا دابة يموت من الطوى ^(١) وبين يديها الطعام الفاخر وبفرش لها المهاد اللويز متجفوه الى الارض الخشنة وتطاق فى الفضاء الفسيح فتزجروتن ، وتسمجن فى قفص الضيق فتطرب وتطمئن ، وقيل لك ان هذه الدابة منفردة بهـ هذه الاطوار بين بنات جنسها أما كنت تياه الى تلك المدينة او تمنى ان تساق اليك تلك الدابة فالبحيل هو تلك الدابة الغريبة فى تكوينها الشاذة فى اطوارها

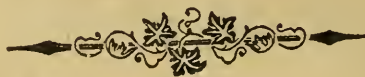
(١) الجوع

التي تعد من الناس وليست منهم ، وتجا نسهم في الصورة والقوام
ولا تشاكلهم

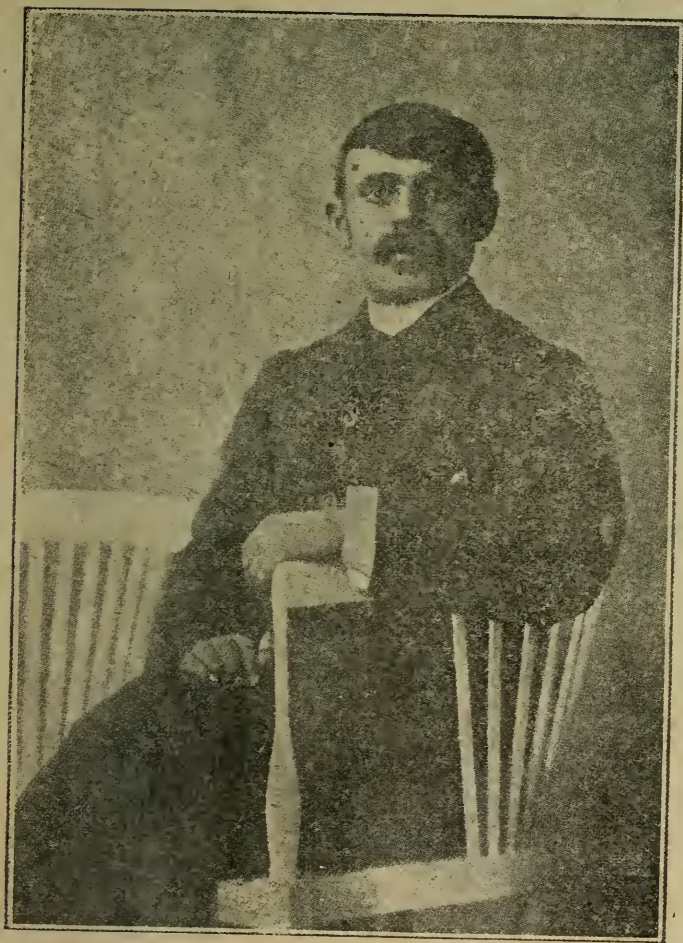
ان الناس يعرفون البخل بأنه الحب المفرط للمال وهذا تعرف
ناقص من جميع اطرافه . وهل العلاقة بين مبخل والمال الا كالعلاقة
السطحية بين العالم والاوراق ، وبين الزمن والساعات ، وقد
وجد البخل قبل أن تحتجن الأموال وتسك النقود كما سلف العلم
قبل ان تصنع الأوراق وتقدمت الشجاعة قبل ان تطبع السيوف
ودار الملك قبل ان تبتكر الساعات . ولو أصبحت الدنيا قد
انقرضت منها الاموال وفي من أيدي الناس الذهب والفضة
لما قضى ذلك بفناء البخل من قلوب البخلاء لما قدمنا من أن البخل
شيء بمنزل عن المال

وانما البخل عاهة تحجب للفكر وتفسد الطبع وتفرد المرء
عن الفطرة المأمة بين بنى جنسه بفطرة منكوسة عوجاء وتذره
خافا عجيبا كل حظه من الحياة يستغرق الوسع في طلب الوسيلة
ثم لا هو يقنع بالوسيلة ولا هو يطلب بها الغاية وليس للبخل
عاهة واحدة بل هو جملة عاهات ممثلة في هذه العاهة فهو من ينج
من الجبن الدنيء الذي يصور للمرء الخطر المستحيل كأنه قضاء
حتم لا مرداه ، ومن الخسة التي يتساوى عند صاحبها الفخر والعيب
وتلحق عنده مراغه الموان بمقاوم المؤدود ، البلادة التي تميت فيه كل

أر يحيه فلا تفتز في نفسه امنيته او عاطفه تقوي على كسر قيود
شجحه وجبنه . وقد ظهرت هذه الخلال للناس قبل ان يتمدينوا
بآلاف السنين ومقتوها فمقتوا البخل متفرقا قبل ان يمتقوه
مجتمعا . وغاية الفرق بيننا وبينهم انهم كانوا يستضعفون من تكون
فيه خلة من هذه الخلال فينبذونه عنهم ويهضمون حقه ويدرسون
حرمة . وربما طلوا دمه وتبرا منه ولالة تأره . واما في مدينتنا
هذه التي وضعت سنة المال موضع سنة الحياة فقد صار البخل
قيها يحل ويبزم ، ويؤخر ويقدم ، وبحل ويحرم ، ويستشفع اليها
بيديها المال ويد فيها جبنه وخسته وبلادته فتقبل منه هذه لتلك .
وانها المعرى لمن الخصال التي انحطت بها المدنية عن الهمجية —
وما هي بالقليلة — فكم خصلة في المدنية يستحب المدني الهمجية
لأجلها ويأنف الهمجى بحق ان يتصف بها ؟



﴿ اخلاق ومواعظ ﴾



للکاتب الاجتماعی المرحوم قاسم بك أمين

(الموظف فلان بك)

لم يأتني وقت على مصر فشت فيه المنافع الشخصية بين الموظفين واستعملت فيه الدسائس لفضاء الشهوات والانانية الدنيئة . مثل هذه الايام التي يملأها بعضهم مصرًا جديدًا لنقدم المصريين نعم حدثت نهضة خفيفة في قوة التمييز واستعدت العقول للبحث عن الحقيقة المطلقة علمية كانت أو أدبية أو سياسية ونمت القوة المدركة قليلا بقدر ما يلوح الفجر . ولكني أقول والحزن يملأ قلبي أن أخلاق الموظفين وعلى الخصوص الكبار منهم لم تتقدم عن ذي قبل بل هي تقهقرت تقهقرا بينا

ومهما كان اثبات أمر من هذا النوع مخجلا فقد رأيت من الواجب علي أن أطرق باب البيان في هذا الموضوع على الذكرى تنفع المؤمنين

وان من يتأمل في حركات الموظفين يشاهد منظرا عجيبا ذا فصول متقنة للتمثيل لنوع اخلاقهم وفصول تخذف في كل آن بطرق مختلفة وقد احببت أو أفرها بآل - بيان لافهام اخواني المصريين الذين يحول بينهم وبينها ستار المناصب فأقول :

هذا الموظف « فلان بك » الذي يرشح نفسه في كل يوم ثلاث مرات عند ومرة عند احد الوزراء العاملين وهو رجل مشهور عند الفوم . ومن أين جاءت له هذه

الشهرة ؟ من غفلتنا جميعا . لاننا نحكم عليه بما نسموه عنه منه فيقول
لنا انا صنعت كذا وكذا وقلت كيت وكيت وطالب منى فلان
المظيم ذاك الشئ ، فامتنت وأجبت فلانا بالبشا بكذا . ووبخت
المستر فلان على فعل كذا . وهلم جرا . ونحن السذج البسطاء
نصدق ذلك ونعتبر مايقوله حقاً مطابقاً للواقع . فياخذ لنا بعد ذلك
ان ننشر عنه تلك المصائل ونؤسس شهرته بايدينا ونحسبه من
الافراد الذين يعدون على الاصابع والذين يدخرون وقت الحاجة
نراه اذا كان في مجلس وتحقق انه يكره الانكليز كان أول من
يذمهم . واذا وجد نفسه في جمعية انكليزية كان أول من يذم أبناء
جنسه . صادفتة مرة بين قوم من الفرنسيين هم الذين دخلوا
بلادنا لكتنا اسمع للناس فان المصري ميال بطبعه الى الفرنسيين
ونحن نعتبر ان كل تمدننا هو عمل الامة الفرنسية وسمعتة مرة
أخرى بين جماعة من الانكليز وقد فتح ازرار قلبه في خطابه لهم
يناجيهم : أنا أقول انكم فكروا بالصراحة ولا أخشى من مخالفة
أغلب المصريين لرأيي . أنا أعقب من حسن الحظ لبلادي ان
فرنسا احتجت عن الدخول في مصر وان الامة التي احتلت
وطني العزيز هي الامة الانكليزية العظيمة الشأن لاني لا انسى
أبداً ما فعله الفرنسيون في مصر عندما احتلها بونابرت
يقول للسوري انه لا يفهم معنى كراهية المصريين لهم وانه

لا يجب التمييز . طبقاً بين افراد أمتين تجمعهما جامعة واحدة .
ويقول القبطي انه ممن ينفض السوريين ويعلم سر كراهية المصريين
لهم لانهم اجانب . ولكن الاقباط والمسلمين أمة واحدة فيازم
أن يتحد الفريقان ليدستاثر بمنافع بلادهم النج

وعلاوة هذا الموظف المشهور هي انه متى وجد في مجلس
لابد وأن يترك له أثراً يذكر به بعده في نفوس بعض الحاضرين ان
لم يكن كاهن وعلى الاقل المهمين منهم . والاهمية عنده تكون
على الترتيب الآتي في الظروف الحاضرة .

الانكليز . ثم الاوروبيون عموماً . ثم الاقباط . ثم النوريون .
ثم نصارى المشرق على الهرم . ثم اليهود . ثم المسلمون
هذا الشخص يظن ان علم السياسة العملية هو غش الناس بكل
وسيلة . ومن الغريب انه يحفظ لنفسه مكانه بهذه الطريقة ولا
يكشف حقيقة أمره الا نفر قليل اذا تكلموا ضاع صوتهم الضعيف
كما تضيع قطرة الماء في الاوقيا نوس الاعظم

أحب للناس من غشهم دائماً ، أم قوة التمييز لا تزال ضعيفة
فيهم ؟ اننى لأعلم ايها بهما حقيقة الواقع

ومن ذا الذى يمانى أن رجلاً غشاشاً يكره الناس ولا يريد
لأحد مطلقاً الخير — لا يحب الا نفسه . ولا يهتم إلا بمنافعه الشخصية
ان رجلاً يبدله مغلوله الى عنقه ونلبه جاف لا يفرح يوماً لفرح

غيره. ولا ندمع عيناه لاحزان أقرب الناس اليه. ان رجلاً يهزأ
بالناس كلهم حتى يتخذهم آلات لفضاء شهواته واطماعه — يستطيع
أن يبدئن محبوباً محترماً مشهوراً بين قوم متمتعين بقوام
العملية ؟؟؟

هذا الذي ترك الاوهام حائرة وصير العالم التحرير زنديقاً

٢

(الموظف وأنا مالي)

هذا الموظف كثير العدد في مصالح الحكومة ومنتشر في
جميع طبقاتها الكبيرة والوسطى والصغيرة انتشر الدباب في
الاماكن القذرة

يذهب في الصباح الى الديوان حتى اذا دخل في قاعة شغله
وجلس على كرسيه اخرج من جيبه عابرة السجائر واحرق واحداً
منها. وفي خلال ذلك تأتيمه انهوة فيشر بهارويدارويدا ثم يتناب
ويتناب. وبعد ذلك اما ان ينتقل الى مقعده ليضعج ولو نصف
اضجاع. واما ان يمين الله بالزائرين وينفتح باب المقابلات ويدخل
عليه الطالبون والملاحون ومن تبادل معهم من الامس وعد مجيئهم
الى الديوان من الاصحاب والمحسوبين عليه ومن استدعاهم لقضاء
مصالحته كجذار يحاسبه، أو طباح جديد ليجره، أو مرضية
لنجله طالبة فيلقون منه ما تقتضي شعائر المروءة واللباشة والوعود

حيث يخرجون واحدا بعد آخر ممتنين شاكرين . وتراه في انهاء ذلك
 كأنما نشط من عقل . غاب كسله . وذهب تناوبه . يتسم
 مسرورا . لا يأنف من شيء ولا يعمل من انسان . الا اذا كان طالبا
 ملحا . يحكي بكل تلطف ويسمع بغاية الحلم . لا يستعمل قط
 حرف (لا) لانه نفي قاطع . ولكنه يمد ويمد ويمد بعبارات لا ترفع
 الامل ولا تستوجب اليأس ولو كان ذلك الامر مستحيلا . مع انه
 يكون مصمما على ان لا يفعل ولو كان الطلب ممكنا وسهل المنام
 ولكن انظر اليه بامعان متى دخل عليه أحد المستخدمين
 بورقة يريد عرضها عليه . تشاهد تبسمه قد غاب ووجهه تنقطب
 وجاهد في استحضار قواه ليدسمع ما يمرض عليه ويبي - واني له
 ان يسمع ويبي - فيقول المستخدم المسئلة مرة ومرتين وثلاثا
 متفتنا في طرق التفهيم عساه يوقظ للفكر النعم - وهو ليس هنا -
 ثم يلاحظ ان من حوله شاخصون ساكنون منتظرون فيه - دارك
 الامر ويحيب باي عبارة صادفت أو لم تصادف . وربما حوله على
 فلان المرؤوس له بحجة انه مشغول الآن أو امرد بارجاء عرضها
 الى وقت آخر لانها مهمة أو غير مهمة فيخرج المستخدم المسكين
 كما دخل والمسئلة باقية وعليه صرفها باي طريقة كانت
 لوسائته لماذا ترك مسئلة مهمة أو لماذا لم يعارض في امر
 كان من الواجب والمنافع أن يعارض فيه أجابك يا خي ماذا اصنع؟؟

فاذا ألححت عليه ساق الحديث الى اختلاف الجور بين أوربا
ومصر أو الى كسيرة الهواء . أو الى اشتغاله بانحراف صحة أهل
بيته . أو الى بيت لطيف تذكره من قول أبي نواس
وأكره من هذا النوع على الخصوص «الموظف وأنا مالى»

الفسار الذى يفهمك انه قال وعمل ما يجب ان يعمل
يقول نعم أنا ماسكت . واستغفرت انظارهم الى جميع أطراف
المسئلة وشرحت لهم جميع نتائجها وما يترتب على عملهم من المضار
و لم أناخر برهة عن اقامة الحجة عليهم بكل ماوسمى وأظهرت
لهم بالصراحة اننى لست مشاركا لهم فى الامر وانهم يعملون على
نقيض مبدئى بالمرّة — ثم يختم كل عباراته هذه بقوله حينئذ وأنا
مالى !! مع انه فى كل ذلك لم يكن قد نطق بكلمة واحدة
يقابلك بنهاية اللطف وحسن الحياء والاشارات اللطيفة للخاطرة ظنه
شريكك فى الاحساس حتى اذا قصصت عليه شيئا مما يشغلك الفية به
بعيدا عنك . أبعد من ساكى الفم اليك . وترى اذا أمعنت النظر
فى وجهه كأنما رسمت عليه هذه الحكمة بأجرف جليلة . وأنا مالى ،
وانا مالى وانا مالى

آه لو لم يكن مطلوباً منه ان يتكلم فى بعض المسائل الخطيرة
لكان «الموظف وانا مالى» سعيداً ، سعيداً ، سعيداً
ولذلك تشاهده ماسمى ولن يسعى الا على وظيفة لا تكون

ذات أهمية الا في مرتبتها . ومتى أدركها طمحت نفسه الى غيرها
أهم منها من جهة المراتب أيضا . وهكذا يستمر متوقفا من مرتب
مهم الى أهم منه حتى يأتي اليوم السعيد الذي يناديه في كل آن
فيحاله على المعاش بمبلغ مهم جدا جدا جدا

٣

(الموظف الغاش بوظيفته)

كنت يوما في منتدى جمع بين جماعة من خيار الموظفين
والشبان الاذكياء الذين يبدأون على المطالمة ومحبون الجد والنشاط
في الاعمال ممن يربطني وياهم اتحاد الفكر وتجمعي معهم وجهة
الاحساس والشعور بحاجة جامعتنا فدار الحديث بيننا على تعيين
أحد رفقاتهم في وظيفة عالية وقد اتفقنا جميعا على ان هذا التعيين
يكون مجلبة خير كثير للبلاد . ثم مضت على ذلك ستة أشهر أو
حوالي ذلك واتفق انا اجتماعنا مرة أخرى وقد دار الحديث
على ذلك الموظف - الذي لم يزل في وظيفته العالية - فاتفقنا جميعا
على ان تعيينه كان مجلبة شر كثير للبلاد

وذلك ان هذا الموظف كان دائما يتأوه معنا على حالة
الانحطاط الاجتماعي من حيثية الاخلاق التي نحن فيها . وكان يقول
كأنقول نحن ان اكبر اعداء مصر هم المصريون الذين نسوا واجباتهم
نحو وطنهم واعتبروا ان الوظائف ما خلقت الا لكي تخدمهم لا لكي

يخضعونها . وكنا قبل تعيينه نحكم عليه حكماً على انفسنا
 لانه كان مثلاً يرى من الواجب على الموظف ان يقوم بالمسؤولية
 الملقاة عليه حق القيام . بل كان يزيد علينا في الرأي بان هذا الواجب
 يتعلق بالموظف ايا كانت الظروف والاحوال على درجة واحدة
 حيث كنا نختلف معه من هذه الوجهة ونقف بالواجب في كل حالة
 عند الحد الذي يناسبها بالحكمة والاعتدال . بمعنى ان الانسان
 لا يلزم الا بالواجب المستطاع ادائه في كل وقت بلا مغالاة ولا
 تقصير . لان السير الحسن في الواقع ونفس الأمر هو ما يترتب
 عليه نفع للوطن ولو كان مذموماً عند بديهة النظر بين الناس . وان
 السير القبيح هو على العكس . من ذلك بشقيه . ومن هذه الوجهة
 كان يطول بيننا وبينه الجدال ساعات ما احلها لوتعود كما كانت عليه
 ولكنها لا تعود . فقد ثبتت عند الخاص والعام ان الوطنية
 كانت لدى صاحبنا هذا كلمة كغيرها يلفظها اللسان من اطراف
 مخارج الحروف فلا يعرفها القلب . كانت قنطرة ليجتازها بقدميه
 توصل الى مكان مقصوده بالذات : كانت قلعة اختارها للدفاع
 عن نفسه من مهاجمة اعدائه : كانت رايه تتبعها شهوات ذنيئة
 وكان للتفاتنا حولها خطأ

على ان غاية ما كنا نؤمله في وطنيته ان يهيج خطة الرشد في
 العمل ويألف بمقال الحق ويشتمل على قدر ما تجود به قوته وتسمح

به استطاعته . وان يساعد ابناء جنسه ويوجد نفسه بعمله ونشاطه
ويقظته وحسن سياسته مركزا يحمله انسانا فعلا نافعا خادما
امينا لابيائه وطنه

فلما وصل الى حيث كان يرمى صار مثل كل جبان نذل يحب
ذاته ويعد انانيته : لا يهتم ولا يتحرك الا لصيانة مركزه الخصوصي
وتحسينه ومخامنه ذاكراته - مخزائمه انيا - تلك الاقوال الجميلة الشائقة
التي كان يظنطن بها عند ما كان الحديث يدور على أعمال الغير . بل
صار مستحقا للاحتقار اضعاف ذلك لانه غش للناس واسـتـعمل
الحيل لابهامهم انه بحرز شمائل وصفات لا يوجد ظلها في الحقيقة
عنده . والى لى حيرة من أمره

ما الذى حمل هذا الرجل الذى توفرت لديه وسائل واسباب
كثيرة تمكّنه من ان يعيش راضيا مرضيا عنه ومحترما على ان يسلك
طريقا لم يكسبه الا للمرة .

فهو متعلم ونبيه . ذو قدرة على الفكر والعمل . لو ولد انكليزيا
أو فرنساويا أو المانيا - بل أو بلغاريا أو ارمينيا وضع صفات التعلم
والنباهة والقدرة على الفكر والعمل في غير خدمة ابناء وطنه فهل
عليه الوحيد انه ولد مصريا فلم يفكر الا في خدمة نفسه ،

على ان الجمع بين الخدمةتين ليس محالا ولا متمذر الحصول ،
فقد رأينا في جميع بلاد الدنيا ان الانسان قد تكون عنده شراة

في حب جمع المال والكسب وشغف بنوال الالقاب والرتب
والوسامات ، ولكنه مع ذلك كله يحب وطنه ويعمل لتقدمه ويساعده
اخوانه ويكره أعداءه وأعداء وطنه

فلماذا يأتى بخلاف الموظف المصرى غيره حتى يعتبر ان
منفعته الخصوصية يلزم ان تكون في جميع الاحوال مضادة
للمنفعة العمومية ،،

كيف يتصور أن رجلا - تلقى العلم عن أهله وتربى على أجود
قواعد التربية المتبعة في أحسن الممالك وعاش في وسط حب للشغل
والعمل نام وشاهد أحوال الأمم الأخرى ورأى تنافسها لبعضها
في سبيل الترقى واحتك برجالهم العقلاء - برضى لنفسه عيشة
الخلو والكسل ، لا يحرره غيره ولا يهزه احساس ، ولا تستنهضه
غاية شريفة يسمى ورائها

وماذا يكون بعد هذا الحال زيد خلف عمرا وبكر خلف زيدا
الخ. الخ وقال كلهم نحن نأتى بالمال يستطيعه الاوائل قبلنا. نحن ندرى
كيف نخدم وطننا. كيف نذود عن حقوق اهلينا. كيف نحفظ لجامعتنا
شمارها وزمارها ودارها. فلما جالسوا على الكراسى المذهبة وتناولوا
المرتبات الوفرة وتصعدوا في المجالس بحيثيات مناصبهم ورأسوا
الموائد في اللولائم والمآدب قالوا لانفسهم انها لعيشة جميلة فلنتمتع
بها. وأما بعدنا فلا نزل القطر

ألم يفكر المصريون في عواقب هذه الخمازي،
ألم يسمع هؤلاء المغرورون أن بعض الأجانب الذين يحبون
مصر يقولون جهاراً إذا كان أبناء هذا المصر هم كما ترى فنحن
نفضل عليهم أبائهم وأجدادهم»

٤

(الموظف السياسي)

إذا كان المقصود من السياسة الدأب على ارتكاب الأشياء
الدينية كما عرفها (رشيرو) المشهور فذلك الموظف يكون جديراً
بأن يسمى سياسياً لأنه، أحر في فن المداينة واستمالة الخواطر واختلاس
الثقة من صدور الناس والدخول في دائرة مودة ولاية الأمور
بالالحاح والعنف والاستعوط على أسرارهم إلى أعماق الضمائر حتى
إذا أخذ كل ما يريد منها كانت له سلاحاً يستعمله

يقول مالا يمتد ويعتقد مالا يقول، ويتظاهر بالشفقة على
زويه وباغاثة المظلومين ومساعدة الضعفاء، ويهتم دائماً أن يكون
له ملاذ قوى ياجأ إليه عند الضرورة. وحزب يتقوى به عند الحاجة
إلى استعمال القوة الذاتية ومحاسيب يستعين بهم كوسائل لمطالبه
عرف للناس جيداً ووقف على أخلاقهم فوضح له أن أكثرهم
يفضل كفه حلوة - ولولم يعقبها عمل زافع - على أنفع الأعمال
مجردا عن تلك الحلاوة. فحقق من ذلك لفظة عن به وحركة ناعمة

تكفيان لأن يؤسس عليهما شهرة سامية وسمعة فائقة ؟

ولا أقول أنه لا ينفع أحدا مطلقا . وإنما أقول لا ينفع الانفرا
من الناس يرى فيهم الاستعداد لأن يكونوا ممالك في قبضة يده
يتحررون حسب اشارته

أما مبدؤه . فعدم المبدأ : كان عراييا مع عرابي حيث كان
رجل الوقت . فلما شام نجمة آخذنا في السقوط تحول عنه وقطع
أوداج الملائق . معه وانكر بالمرة معرفته

ثم كان أول من أخذ طنبورته وغني عليها نعمة المندبح في
..... ولكنه لما رأى قدم الانكليز ثبت بعد الاحتمال شيئا فشيئا
وسلطتهم تنزايد يوما فيوما انجاز الى صفهم وارشدتهم ونصحهم
واوصالهم باخبار « آخر ساعة » قدم لهم قوائم باسماء المشبوهين
واطلق على برزجه هذا « سرالوطنيين »

ثم لما رأى مركز قد تقوى على أثر تولية
وصار كما يجب ان يكون - أول عامل في ادارة البلاد - أخذ
يقبح في الانكليز من ورائهم ويمهجو أعمالهم ويشرح مقاصدهم
السيدة حتى حرك النفوس لدى البعض الآخر ، وبذر الفتنة ، وجعل
الزلازل وتفتح بقمه ربح المواصف ، وعكر المياه فطاب له اليدش
في هذا الوسط المحشو بالخطر . وكنت تراه خلال ذلك منشرجا
مسرورا كن آل اليه ميراث جديد وصار في نشاط غريب حتى

أوصل سياسة الغش والدهاء الى درجة لم يكن يحدث نفسه بها
وكان يذهب الى كل فريق فيخطبه بالالفاظ المذبة التي تحلو
على مسمعه فتمكن وقتئذ من الايقاع باشخاص كثيرين أما بنميمة
ألقاها في وسط الحديث ، أو باستعلامات غير حقيقية اخترعها ولم
يفكر لحظة في النتائج الوخيمة التي تترتب على هذه الاعمال
وقوة هذا المرظف كونه دائما متيقظا وعالما بمحركات الناس
واميالهم وصفاتهم وعيوبهم . وكونه يشغل ويعمل دائما بنشاط
وحرارة لا يقبلان اللال.

لذلك تمكن من أن يكون ذا مركز مهم ومنزلة سامية بين الناس
يعتبره الاوربيون من أبناء مصر الفتاة الذين يقدررون أورا
حق قدرها ويعترفون لها بالفضل على مصر ويتبنون المعيشة تحت
سيطرتها . والذين منتهي آمالهم أن تكون مصر بالدة مختاطة بحكومة
بحكومة مختاطة .

ويعتبره الانكليز رجلا نبيها قد يلزم رغما عن عيوبه في بعض
الاحيان لجل المعقود أو لتمدد المحاول من الامور على حسب
مقتضيات الاحوال

ويعتبره المصريون انه رجل ذودها يمكنه ان يؤدي للبلاد
خدمات كثيرة وينال من الانكليز بالخدمة والحيلة مالا
يناله غيره

غيره . ولا ندفع عيناه لاحزان أقرب الناس اليه . ان رجلا يهزأ
بالناس كلهم حتى يتخدم آلات لفضاء شهواته واطماعه — يستطيع
أن يبدى محبوبا محترما مشهورا بين قوم متممين بقوام
العملية ؟؟؟،،،

هذا الذى ترك الاوهام حائرة وصير العالم التحرير زنديقا

٢

(الموظف وأنا مالى)

هذا الموظف كثير العدد فى مصالح الحكومة ومنتشر فى
جميع طبقاتها الكبيرة والوسطى والصغيرة انتشر الدباب فى
الاماكن القذرة

يذهب فى الصباح الى الديوان حتى اذا دخل فى قاعة شغله
وجلس على كرسيه اخرج من جيبه عاية السجائر واحرق واحدا
منها . وفى خلال ذلك تأتبه انهوة يدثر بهارويدا رويدا ثم يتشاب
ويتشاب . وبعد ذلك اما ان ينتقل الى مقعده ليضع لو نصف
اضجاع . واما ان يمين الله بالزائر ينفتح باب المقابلات ويدخل
عليه الطالبون والملحون ومن تبادل معهم من الامس وعد مجيئهم
الى الديوان من الاصحاب والمحسوين علماء ومن استدعاهم لقضاء
مصلحته كجدار يحاسبه ، أو طباخ جديد ليجره ، أو مرضعة
لنجله تطالبه فيلقون منه ما تقتضى شعائر المروءة والبدشاشة والعود

حيث يخرجون واحدا بعد آخر ممتنين شاكرين . وتراه في أثناء ذلك
كأنما نشط من عقل . غاب كسـله . وذهب تناوبه . يتسم
مسرورا . لا يأنف من شيء ولا يمل من انسان . الا اذا كان طالبا
ملحا . يحكي بكل تلطف ويسـمع بغاية الحلم . لا يستعمل قط
حرف (لا) لانه نفي قاطع . ولكنه يمد ويد ويد بمبارات لا ترفع
الامل ولا تستوجب اليأس ولو كان ذلك الأمر مستحيلا . مع انه
يكون مصمما على ان لا يفعل ولو كان الطلب ممكنا وسهل المنام
ولكن انظر اليه بامعان متى دخل عليه أحد المستخدمين
بورقة يريد عرضها عليه . تشاهد تبسمه قد غاب ووجهه تنقلب
وجاهد في استحضار قواه ليدسمع ما يمرض عليه ويبي - واني له
ان يسمع ويبي - فيقول المستخدم المسئلة مرة ومرتين وثلاثا
متفنتا في طرق التفهيم عساه يوقظ للفكر الذم - وهو ليس هنا -
ثم يلاحظ ان من حوله شاخصون ساكنون منتظرون في دارك
الامر ويجيب باي عبارة صادفت أو لم تصادف . وربما حوله على
فلان المرووس له بحجة انه مشغول الآن أو امره بارجاء عرضها
الى وقت آخر لانها مهمة أو غير مهمة فيخرج المستخدم المسكين
كما دخل والمسئلة باقية وعليه صرفها باي طريقة كانت
لو سألته لماذا ترك مسئلة مهمة أو لماذا لم يعارض في امر
كان من الواجب والمنافع ان يعارض فيه أجابك يا أخى ماذا أصنع ؟؟

ولكنه في الايام الاخيرة قد اكتشف كثير من المصريين
الذين يستعملون دخائل الأمور وما يجري وراء الستار ان سياسة
الرجل لا تخرج عن حيل « قره كوز » البسيطة . وان هذه الاوقات
الصعبة التي تنتقل فيها البلاد من حالة الى حالة تستدعي رجالا
يفهمون منافع الوطن الحقيقية الدائمة ويشيدون آرائهم وأعمالهم
على الله - لم لا على الحيل
أو لم يكن الاجدر بهذا الموظف السيامي ان يستعمل بعض
الصفات التي امتاز بها على كثير من غيره في خدمة بلاده . وان يسعى الى
الخير والمجد رفعة القدر وحسن السمعة من طرقها الحقيقية التي تنحصر
في تقوى النفس وعمل الخير ؟

٥

(صاحب المعاش)

ترك الحكومة — أو على الاصح تركته الحكومة — وهو
أكثر ما يكون في الغالب متمتعاً بقواه البدنية العقلية وسواء كان
معاناه كافياً لاقتضاء لوازم معيشته أو غير كاف . وسواء كان غنياً
في حد ذاته أو فقيراً تراه دائماً كئيف البال آسفاً على وظيفته
أسفاً شديداً لانه يظن — كما اعتاد أهل بلادنا ان
يعتقدوا أن الانسان قليل بنفسه كثير بوظيفته . ولانه يشاهد
دائماً أن الواحد عند ما يكون في وظيفة عالية يحتزم ويحل مقامه

ويزار وتزاحم الرباب والبغال والحمير على باب منزله الذي يكون
مزهرا مهجبا تحييه حركة مستمرة وتحف به حياة طيبة. فإذا أحيل
على الماش انقضى كل ذلك وأصبح هذا الشخص بذاته مهملا
مهجورا بل ومندهشا: كمن رأى رؤية مفرحة واسعة قظ من نومه فجأة
فلما يتخيل صاحب الماش كل ما كان عليه بالامس وما أصبح
فيه اليوم لا يستطيع ان يمنع نفسه من القأز والتحسر

ولو تذكر الناس ان الشرف والمجد لا يصادفان في طائفة
الوظفين الا بنسبة قليلة جدا. وان كل انسان قادر على ان يرقى
نفسه بنفسه وان يعمل على اكبر ملك في الدنيا بفضله وعلمه، لما
رأى ورأوا في انفصاله من خدمة الحكومة الاحادنة اعتماديته لا
تزيده ولا تنقصه شيئا

ولكن كيف يتأتى وجود هذه الماكة في امة تصورت انها
خلقت ليحكم نصفها النصف الآخر؟ وعند رجال اذا قلت لهم
عملوا اولادكم قالوا «انا لانجد في التلم فائدة حيث الحكومة قفلت
ابوابها في وجوه ابنائنا» :: كأن العلم لا قيمة له في حد ذاته او
كان العلم كسب المال سهل وحل في الحكومة، سب وحرام خارجها
ومما يزيد تألم صاحب الماش على فراق وظيفته انها كانت في
الحقيقة الشيء الوحيد الذي يشغل اوقاته بها — لالا نه كان منهمكا
في تأدية جميع الواجبات المتعلقة بها — بل لانه اعتاد على ان يعنى

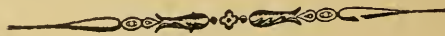
وقته بكيفية مخصوصه لم يعد في امكانه استعمالها . ولذلك ترى
ارباب المعاشات في حيرة لا يدرون معها ماذا يصنعون لاجل ان
يقتلوا الزمان قبل ان يقتلهم . فمنهم من يخرج في الصباح لزيارة
من هم على شاكله يوميا ولا يعود الا وقت الظهر . ومنهم من
يقصد المقهاوى والاندية العمومية للعب من الساعة السابعة صباحا
الى ان يذهب دوى مدفع الظهر ايضا . ومنهم من يجلس على
كرسى امام باب منزله او حانوت او اجرة ليتأمل في حركة
الشارع نحو من اربع او خمس ساعات . ومنهم من يقضى اكثر
اوقانه معتكفا في المساجد . ومنهم من يطرف على مصالح
الحكومة يوميا ليعتدع بمشاهدة السلطة التي حرم منها حيث يجد
في الاحتكاك باهل الحل والعقد بعضا من اللذة او التذوية

ولم ار فيهم من اوجد نفسه عملا يشتغل به بدلا عن وظيفته ؛
اذ عرف أيها القارىء واحد من ارباب المعاشات الذين يكثرون
عددهم كل يوم يشتغل في منزله ساعة او ساعتين . لم علم بجمله او
اتقان فن تعلمه ، ومنهم الطبيب والمهندس والعسكري والادارى
والمشرع ، وبين جميع هؤلاء الغني والفقير المحتاج ؛ فهلا اشتغل
الذي لترقية عقله والفقير كذلك او استعان هذا على معالجة فقره
بالسعى في طلب الرزق

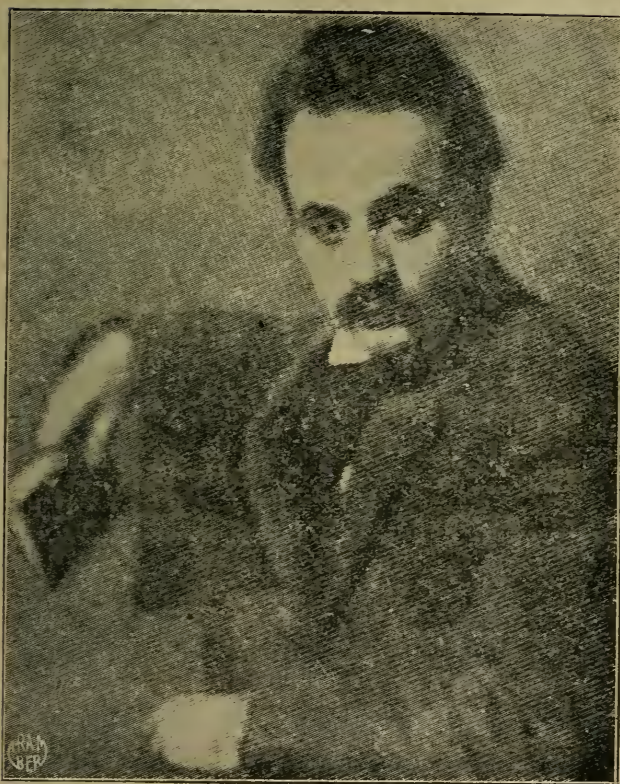
ابلى يقوم يطمعون بتحسين مستقبلهم ان يعيشوا في وسط

التنافس العام بالبطالة والكسل ::

ومما يدهش الفكر ويؤلم النفس ان صاحب المعاش يرى من
حين تخليه عن المنصب انه لم يبق من الواجب عليه ان يهتم بشيء
مما يحصل فيها بالمرّة فاذا سمع خبراً عزناً او ذلاً واقعه، كقدرة تراه
بعميد المشهور بقدر ما هو بعيد عن الوظيفة او بقدر ما هو قريب
امل الرجوع اليها . واول كلمة تخرج من فيه « الحمد لله على اني في
يدي وبعيد عن نصب المنصب » . كأنه صار أجنبياً عن البلاد بالمرّة
وكثيراً ما يتصامم عن سماع اى حديث يكون موضوعه المصلحة
العمومية : لانه لا يجب ان يتداخل في شؤون الحكومة :: وقد
يفضل على ذلك سماع القصص الخرافية ونوادير الاعصر القديمة
التي يحفظها بوعى وذاكرة قوية ليتها استعمالها لحفظ شيء ، نافع



جبران خليل جبران



عرفت روحي روح جبران خليل جبران منذ سنين اما
شخصه فلم انظره غير مرة واحدة فقط . ومع ذلك عشقته قبل
أن أراه . بل عشقت روحي روحه ، وليس قرة تحت الشمس تمنع
الروح عن الاقتراب من روح اخرى متى رأت فيها ما يجذبها اليها

والارواح تمسق بعضها هازئة بالثقيل غير حافلة بالمقامات فعد
تميل روح عامل بسيط الى روح اكبر فيلسوف وتهوى روح رجل
شريف روحا فاضلة فتتبعها ولا تتجبد منها صمد ودابل بالعكس فان
الروح الفاضلة تجذب اليها روح الرجل النحرير وتعلمها الصلاح
وما ذلك الا لان النظام الروحي ارقى من النظام «الجسدى» .

فروحي تحب جبران غير ناظرة الى من انا ولا الى من هو
في هذه الحيا الا انها خاضعة لنظام الارواح لا تباهى للفروقات الارضية
قرات بين سطور جبران اكثر مما سطرته انا مله في رواياته
وسائر مؤلفاته التي اسمعني الحظ وطالعها ولهذا انا احبه

رافقه في رحلات كثيرة ووقفت معه في مواقف عديدة فاذا
به هو هو هو ذلك الرجل المتمرد على الخرافات النائرة على الارضيات
المحتقر المادة الناطر الى عالم الارواح السامى فمن ينظر اليه كما انظر
اليه انا ويعرفه كما اعرفه ولا ينصب له على عرش قلبه تمثالا يفوق
بجماله كل تماثيل عظماء البشر على الارض ،

وقفت مع جبران على حافة الوادى انظر الى شهداء الشجاعة
والحب والشيخوخة وقد عبثت بهم يد الظلم سمعته يتنهد ويقول :
« تنهدت ولو مست شعلات تنهداتي اشجار ذلك الحقل
لتحركت وتركت اما كنها وزحفت كتائب كتائب وحاربت
بقضبانها الامير وجنوده وهدمت بجذوعها جدران الدير على

رؤوس رهبانه - من روايته «صراخ القبور» - فوددت ان اكون
 قائدا لاحدني كتائب جبران لانتمم للظالمين من مظالمهم
 ورأيتهم يدخل هيكل عشوت ليجمع بسلمي كرامه فرافقه ولم
 ادخل ائلا ازعج وحدة قدسين ارضين قدسهما الحب واكتفيت
 بان اسمع بلاغة الحكمة من فم جبران وارادتم كيف يصان الشرف
 وتحفظ اليهود حتى في اخرج للمواقف من سلمى كرامه
 سكبت معه (دمعة) وابتمت معه (ابتسامه) رافقه في
 (العاصفة)

وقفت واياه مع (حفار القبور)

سرت معه وراء نعش (مرتا البانية)

ودرست مبادئه في روايته (الخليل الكافر)

و(مضجع العروس) و(سفينة في ضباب) واخيرا سمعت انه صار
 (نبيا) وقد قرأت في السائح بعض آياته فآمنت بان كتاب (النبي)
 لا شك في انه نبي المكتوب واحنيت راسا احتراما لروح جبران
 الظاهرة في حرف من حروف آيات (نبيه)

م.ع.

فيورك

الحب

من جملة ما قاله على الحب

* *

(الحب لا يعطي شيئاً سوى نفسه ولا يأخذ شيئاً إلا من نفسه -
(الحب لا يملك ولا يملك لأن الحب كاف للحب)
(عند ما تحب لا تقل (إن الله في قلبي) وإيكن (أني أنا في
قلب الله)

لا تتوهم أنك تستطيع تسيير الحب لأن الحب إذا انفك مستحقاً
يذهب هو مسيرك)

* *

وقال من جملة عن الأولاد
(إن أولادكم هم ليسوا أولادكم ... هم أبناء وبنات الحياة
الثائفة لأنفسها)

قد تواوون أجسامهم أما نفوسهم فلا . لأن
نفوسهم تسكن في بيت الغد حيث لا يستطيعون الدخول حتى
بالحلم ...

«أنتم أقواس مشدودة تندفع منها الأولادكم فهم سهام حية»
«إن الراي يرى الهدف في طريق الانهيار فيلوم بكل فوته»

لكي تنطلق سهامه سرية وتذهب بعيدة»

وقال في انعطاء

«انكم تعطون قليلا اذ تعطون من اموالكم اما العطاء الحقيقي فهو عندما تعطون من ذواتكم»

«ما هي اموالكم سوى اشياء تحفظونها وتحفظون بها مخافة ان تحتاجوا اليها غدا»

«وغدا، ماذا عسى ان يجلب الغد للكلب الجريس الذي يدفن العظام في رمال الصحراء وهو لاحق بالحج الى البلد المقدس ، « وما هو الخوف من الفاقة سوى الفاقة نفسها ، اوليس ان الخوف من اللظما اذ تكون آباركم طائفة هو ظما لا يروى ، «

وقال عن الجرائم والعقاب

«عندما يسقط احدكم فانما يسقط من أجل الدين وراه اذ يكون منبها لحجر العثرة»

«ويسقط ايضا من أجل الذين امامه اولئك الذين كانوا اسرع منه واثبت قدما ولكنهم لم يزيحوا من طويق حجر العثرة «
«وهذه ايضا اقوله لكم وان ثقلت هذه الكلمة على لوبكم
«ان القليل ليس خاليا من مسؤولية قاتله»

«ان للمهوب ليس بلا ملامة لانه نهب)
(والصالح ايس بريثا من أعمال الشرير)
(وذا لايد البيضاء ليس نظيفا من قذارة المجرم)
ان المجرم هو غالبا ضحية فريسته)

* * *

وقال عن الشرائع
(انتم تفرحون بتدوين الشرائع)
(على انكم تفرحون اكثر بهدمها)
(مثل الاولاد على شاطئ البحر الذين يبنون ابراجا من رمال
باجتهاد مستمر ثم يهدونها ضاحكين)
(ولكن بينما انتم تبنون ابراجا من رمل يقذف البحر رمالا
جديدة الى الشاطئ)
وعندما تهدمونها ضاحكين يضحك البحر معكم)
(بالحقية ان البحر يضحك دوما مع البسطاء)

كلماته الفلسفية

قال متفلسف لكناش الشوارع - « اننى اشفق عليك لان
عملك مضمّنك وقدر » فاجاب كناش الشوارع - « اشكر كياسيدى
ولكن قل لى ما عمالك ، » فاجاب المتفلسف متبجحا (ادرس
اخلاق الناس وطبائعهم وابحث فى اعمالهم ومنازعمهم) فضحك
كناش الشوارع وسار فى طريقه قائلا (يامسكين ، يامسكين



الانسان بيتدع الآلات ويسيرها ثم تسيره وهكذا يصير
الاسيد عبدا لعبده



مانهاني امروء عن أمر الا وكانت رغبته فيه اشد من رغبتي .



رأيت وجنه امرأة فرايت اطفالها ولم يولدوا به - دونظرت
الى وجهى فعرفت ابائى وجدودى وقد ماتوا قبل ان تولد .
لولا البصر والسمع لما كانت الانوار والاصوات سوى ارتعاشات
مضطربة فى الفضاء . كذلك لولا القلب الذى يحبك والقلب الذى
تحبه لكنت هباء منثورا



من يشفق على المرأة يمتننها ومن يعزرو بلات الاجتماع اليها
يظلمها ومن يحسب صلاحها من صلاحه وشرها من شره كان مدعيا
متبجحا ولا ينصفها الا من يرضى بها كما ارادها الله لا كما يريد

* *

بعض ابائنا كالذنوب وبعضنا كالا عذار

* *

الفقر غلطة وقتية اما الازراء فوق الحاجة فعلة مزمنة

* *

انما العسق حاجة غير منقضية .

* *

اجتمع اديب فقير بموسر بليد فتبادلا الادب والنشب ولما
افتراقا لم يجد الاول في يده سوى حفنة من تراب ولم يشعر الثاني
في قلبه بغير نفخة من الضباب

* *

يحسبون الفضيلة في كل ما يميني ويربح جارى . ويطنون
الاثم في كل ما يربحنى ويتعب جارى . فيالياتهم عرفوا ان بإمكانى
ان اكون فاضلا او اثيما وانا في صومعة لا يجاورها احد من الناس

* *

راجع دفاتر امسك تجد انك لم تزل مدينا للناس وللحياة .

اللين واللاطف من مظاهر القوة والعزم لا من مصادر الرخاوة
والضعف .

*
* *

زرعت اوجاعي في حقل من التجلد فنبئت افراحا
ليس اللؤلؤ سوى راي البحر في الصدف ولا الماس سوى
راي الزمن في الفحجم .

*
* *

لو تغيرنا مع الفصول لما غيرتنا الفصول .

*
* *

الخوف من الجحيم جحيم والشوق الى الجنة جنة

*
* *

لو كان كل ما يقولونه عن الخير والشر صحيحا لكانت حياتي
كلها اثما فادحا .

*
* *

عليها الا ان ننسى ان سكان الكهوف ما برحوا ساكنين
كهوف افكارنا .

تري هل تنتهي اغنية البحر عند شواطئه ام في قلوب المصنفين اليها .

*
* *

المثري يتقرب من الاصيل والاصيل من المثري وكل منهما

يكره الآخر

* *

أكثرنا فكرة مترددة بين غرر صامت وخنوع ترتار .
النجارة مبادلة ماذا والافهى سرقة

* *

إنما الفرق بين ما يظهر لنا من الرجل الكبير وبين ما يخفى
عنا كالفرق بين قطر يتساقط على حقولنا وسحاب يسير منسابا
فوق جبالنا

* *

بين فكرة الانسان وخياله مسافة لا يقطعها سوى شوقه

* *

أحسن الناس من اذا مدحته خجل واذا هجوته سكت

* *

إنما المنشد من يغنى انشاده منا

* *

قد تكون المناصرة ضربا من احتقار المناصر وضدها شكلا
من الاحترام

* *

تعلمت الابد كبار من البغاء

ليس هناك ادعى الى محبةنا الا حياء من اسفنا على الاموات .

* *

ما اعجزنى عن ابلاغ صوت الحياة فى روحى الى اذن الحياة
فى روحكم

* *

التمنى بدء التحقيق

احب فى الادب ثلاثة - المرد والابداع والتجرد

* *

واكره فى الادب ثلاثة - التقليد والمسح والتمقيد .

* *

ليس الشاعر باكثر من زنبقة نابئة فى جمجمة .

* *

ليس ادل على شكنا فى امر من مبالفتنا
فى اثنائه .

* *

اذا خيرت بين شرين اختار الشر الظاهر منهما وان يكون
الاكبر دون الشر الخفى وان يكن الاصغر

* *

ما اصغرنى امام نفسى عندما تمطينى الحياة ذمبا

فأعطى الناس فضة ثم أحسبني كريما جوادا .

* *

لولا مقايستنا وأوزاننا المحدودة لتمهينا امام الحياحب مثلما
تهيب امام الشموس .

أحفر في الارض تجد كنزا ولكن عليك ان تحفر مؤمنا
كالمزارعين .

لا ولن نستطيع بلوغ الأعالى المنورة الا عن طريق
الاعماق المظلمة .

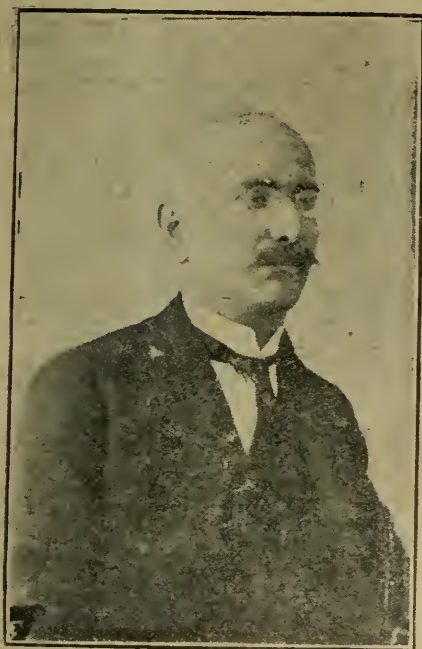
* *

كيف نسمع اغنية الحقل واذاًنا لم نهضم صنجة المدينة ...
* بين العقلاء والمجانين فاصل ادق من نسيج المنكبوت
نصف الشفقة انصاف

* من الناس من لا يجد لذة الا في البحث عن الالم ومنهم من
لا يستنظف نفسه الا في البحث في الاقدار
* ليس هناك امر ادعي الى خجل الشرقيين المعاصرين من آثار
الشرقيين الغابرين

* كلنا سجين ولكن بعضنا في سجون ذات نوافذ وبعضنا في
سجون بدون نوافذ .

التأليف في الاسلام



للـ كاتب المؤرخ محمد افندي كرد علي صاحب مجلة (المقتبس)

من جملة مخطوطات دار الكتب الظاعرية بدمشق كتابان
عظيمان تعددت مجلداتهما فدل على اتساع نطاق التأليف في الاسلام
ايام كان علماؤه منذرفين الى العلم والعمل يصرفون ائمن اوقاتهم في
خدمة الامة وهما كتاب الكواكب الدراري في تبويب مسند
الامام احمد على ابواب البخاري لجامعة الامام ابي الحسن علي

ابن عروة الحنبلي من أهل القرن التاسع وكتاب تاريخ دمشق
الكبير لوضعه الحافظ أبي القاسم ابن عساكر من أهل القرن
السادس .

هذان السفران الجليلان آيتان ناطقةتان على طول نفس اجدادنا
وشدة وناثنا وجهنا فقد وجدنا من الاول مجلدات كثيرة ضخمة
لا تقل عن ثمانين مجلداً متفرقة ومما وجد منها المجلد الثاني والعشرون
بعد المائة بحيث لا يظن ان الكتاب بلغ اقل من مائة وخمسين مجلداً
في التفسير والحديث والاصول والفقه الحنبلي وتراجم الحنابلة
ومباحث في الفلسفة والكلام والتاريخ والادب فهو دائرة معارف
اسلامية حقيقية ضمت بين جوانحها اشهر كتابات علماء الحنابلة
وكبار مجتهدي الامة مثل شيخ الاسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية
وابن رجب وغيرهم من الاعلام

واما تاريخ دمشق فممنه الآن نسختان في عشرين مجلداً
ونسخة وقعت في عشر مجلدات ضخمة وهي نامة وكان كتب في
ثمانين مجلداً . ولقد جرى ذكره بين حافظ (١) مصر في هذه
ذكرى الدين المنذرى وطال الحديث في امره واستعظامه فقال حافظ
مصر: ما أظن هذا الرجل الا عزم على وضع هذا التاريخ من
وم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت والافلام

يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بمد الاشتغال
والننبه . قال ابن خلكان : ولقد قال الحق ومن وقف عليه عرف حقيقة
هذا القول ومتى يتسع للانسان الوقت حتى يضع مثله وهذا الذي
ظهر هو الذي اختاره وما صح له هذا الا بعد مسودات ما يكاد
ينضببط حصره وله غيره تأليف حسنة

وبعد فان الخالق تعالى وضع في أفراد من كل امة خاصيات
وملكات قلما يشاركهم فيها كثيرون وآتاهم هبات يستخدمونها
في نفع البشر ونفوسا لا تعرف الملل لدرك مقاصدهم الشريفة .
وكما ارتقت الحضارة في شعب ينبغ فيه رجال يصرفون على الافادة
والاستفادة تقدا اعمارهم ويتمحضون لاحسان الخدمة حتى لا يكادون
يرون السعادة والملاذ والخير وكل ما تطمح اليه نفوس بني الانسان
من المعالي الا فيما هم بسبيله

ومن أنعم النظر في تراجم نوابغ العلماء ودرس حياتهم حق
دراستها لا يلبث ان يزول عجب به اذا شاهد كيف كانوا يستفرون
في اعمالهم ويفانون فيما أخذوا به نفوسهم فيزهدون في المال والبنين
وبقطعون أنفسهم عن حب المناصب والمراتب والزخارف
والسفاسف

كفنا ذات يوم نذكر لاحد اصداقنا من الاطباء الذين صرفوا
شطرا من حياتهم في الغرب اتساع التأليف في هذه الامة قديما

فقال اما ما يبلغكم عن اكثر المؤلفين في الغرب اليوم عن كثرة
المصنفات فليس لاكثرهم منه الا الذر القليل يكتبه لهم اذكاء
المنخرجين بهم بعد أن يكونوا ثقفوا عنهم بعض ماله علاقة في
الموضوع الذي ألفوا فيه حتى اذا اتوا على آخره يدفعونه الى اسانذتهم
فيجبلون فيه انظارهم ويمثلونه للطبع مفتتحا باسمهم والمصنف
منهم من يذكر أن تلميذه فلان اعانه في التأليف وبعضهم يضمنون
بمثل هذه الاشارة

ولما أوردنا لصاحبنا اسماء كثير مما اشتهروا في الاسلام
وألفوا التأليف الممتعة الضخمة وعنوا وحدهم في الاكثر بجمعها
وتنسيقها وتصنيفها وتبويبها وتسويدها وان ما أثر عنهم كان
مردوداً لو لم يرد على لسان اهل المدل والصدق من المؤرخين وعلماء
التراجم وبعضهم قد يكونون من اضدادهم وحاسدبهم — عند
ذلك افتنع صاحبنا بصحة رأينا وقال ان حال الافرنج اليوم يخالف
حال سلفنا فان الافرنجي مهما باغ من حبه الحكمة وتفانيه في خدمة
المعارف يقطع له اوقاتا لراحته وادخال الفرح على قلبه لينشط الى
متابعة السير في عمله اما الشرقي فانه يفرط فيما تمحض له في له اما
تعب ليس وراءه غاية او راحة ما بعد ورائها وراء

افتتح اي كتاب من كتب التراجم ولا سيما تراجم اهل
القرون الستة الاولى للاسلام تسقط على مبالغ عناية رجالنا بالتأليف

وتوفرهم على النفع وقد يظن ان معظم ما خافوه من كتبهم هوديني
ولا اثر لهم في العلوم الدنيوية واسكن هذا الظن لا ينفي من الحق
شيئا لان جماهير المؤلفين المجيدين لم يكونوا متمكنين من
علوم الدين باغفال علوم الدنيا بل انهم كانوا يعقدون بان العلوم
باسرها نافعه في الدارين وما تنفع في هذه الاولى كان خلية كان ينفع
في الآخرة

هذا ابو محمد بن حزم الظاهري واهل الظاهر نفاة القياس
والتعليل وهو معدود في الطبقة الاولى بين علماء الدين ومع هذا
تجد له تأليف ممتعة فيما نعتبره من علوم الدنيا فقد ذكر غير واحد
من علماء الاندلس (١) ان تصانيفه في الفقه والحديث والاصول
والنحو والمال وغير ذلك من الناريخ والنسب وكتب الاذب والرد
على المخالفين نحو من اربعمائة مجلد تشتمل على تقريب من ثمانين الف
ورقة . وهذا شيء ما علمناه لاحد ممن كان في مدة الاسلام قبله
الا لابي جعفر محمد بن جرير الطبري فانه اكثر اهل الاسلام تصنيفا
فقد ذكر ابو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف
بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ ابي جعفر للطبري الكبير ان قرما
من تلاميذ ابي جعفر اخلصوا ايام حياته منذ باغ الحلم الى ان توفي
في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها اوراق

مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة ومن جملة تأليفه التفسير الكبير والتاريخ الذي هو أصح التواريخ وأثبتها وكلاهما مطبوع متداول وهو قال لتلاميذه : هل لكم أن أملي عليكم كتاباً في التاريخ قالوا ولم يكون حجمه فقال ثلاثون ألف ورقة فاستمعوا ذلك وارادوه على الاختصار حتى أملاه عليهم في ثلاثة آلاف ورقة فجاء كما رأيناه اليوم أحد عشر مجلدًا ضخمًا أملاه بهذا القدر وهو يحوّل ويقول ماتت المهم لان تلاميذه لم يوافقوه على جعل تاريخه في ثلاثين ألف ورقة فماذا كان يقول لو جاء في هذا العصر ورأى انحطاط علوم الدين وعلوم الدنيا بين قومه

وابن جرير في اجادته في التأليف واكثره منه مشهور كسائر من تقدمه ومن تأخر عليه من المصنفين مثل ابن تيمية من اهل القرن الثامن فقد قال فيه أحد وصفه (١) ان له من المؤلفات والفوائد والفتاوى والاجوبة والرسائل والتماليق ما لا ينحصر ولا ينضب ولا أعلم احداً من المتقدمين ولا من المتأخرين جمع مثل ما جمع ولا صنف نحو ما صنف ولا قريباً من ذلك مع ان تصانيفه كان يكتبها من حفظه وكتب كثيرًا

منها في الحديث وليس عنده ما يحتاج اليه ويراجعه من الكتب . وقال غيره كان الامام يكتب في اليوم واليلة من التفسير

او من الفقه او من الاصلين او من الرد على الفلاسفة الا واثل نحواً
من أربعة كرايس او ازيد وما يبعد ان تصانيفه الى الآن تباغ
خمسائة مجلد وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلد وجمع بعض
الناس فتاويه بالديار المصرية مدة مقامه بها سبع سنين في علوم شتى
فجاءت نحو ثلاثين مجلد وقيل ان تأليفه تبلغ ثلثمائة مجلد .

ومثله أبو الفرج ابن الجوزى الواعظ مع علماء القرن السادس
صنف في فنون (١) عديدة وكتبه أكثر من ان تعد وكتب بخطه
شيئاً كثيراً والناس يغالون في ذلك حتى يقولون انه جمعت
الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره وقسمت الكراريس
على المدة فكان ما خص كل يوم تسمع كرايس وهذا شيء عظيم
لا يكاد يقبله العقل ويقال انه جمعت براية اقلامه التي كتب بها
حديث الرسول فحصل منها شيء كثير وأوصى ان يسخنها الماء
الذى يغسل به بعد موته ففعل ذلك فكفت وفضل منها

ومن المكثرين من التأليف ابراهيم الهيثم الرباضى اللطيفى
فقد عدد ابن أبي أصيبعة مصنفاته في زهاء اربع صفحات هــذا
عدا ما ضاعت دساتيره منه لما فارق البصرة والاهواز وانتقل الى
مصر قال : وما أظنها تنقص عن مائة مجلد ومثله الفارابى احد فلاسفة
الاسلام كان مكثراً من التأليف وقد اضاع اكثرها لانه كان

يكتب في رقاع كيفما اتفق ويختار الفلاة ومجاري الانهار للتأليف
فتطير الاوراق التي يكتبها

ومثلهما ابو الريحان البيروني قال ياقوت : كان لغويا اديبا له في
الرياضيات والنجوم اليد الطولى ولما صنف القانون المسعودي اجازته
السلطان بحمل فيه فضة فردده للاستغناء عنه وكان مكبا على تحصيل
العلوم منصبا على التصنيف لا يكاد يفارق يده القلم وعينه للنظر
وقبه الفكر دخل عليه بعض اصحابه وهو يجود بنفسه فقال له
في تلك الحال كيف قلت لى يروا حساب الجدات للفسادة فتال
افى هذه الحال قال : يا هذا اودع الدنيا وانا عالم بها اليس خيرا
من ان اخليها وانا جاهل بها قال : فذكرتها له وخرجت فسمعت
الصراخ عليه وانا في الطريق قال ياقوت : واما تصانيفه في النجوم
والهيئة والمنطق والحكمة فانها تفوق الحصر ورأيت فهرستها في
وقف الجامع في نحو الستين ورقة وقال بعض مترجمة : ان كتبه
زادت على حمل بعير

والبيروني احد كبار فلاسفة العرب يجيء في طبقة ابن سينا
وابن رشد وابن زهر والافارابي ومثلهم الكندي فيلسوف العرب (١)
وكتبه في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب
والارتماطيقى والموسيقى والنجوم وغير ذلك وقد عد اسماءها ابن

القديم في ست صفحات . ومثله ابو بكر بن زكريا الرازي صاحب
المصنفات الممتعة في الطب والمعلوم العقلية والادب وهو الذي
استنار الفرييون لاول نهضتهم بمصنفاته واول ما طبع عندهم من
تأليف العرب كتبه ذكر اسماءها ابن ابى اصيبعة في نحو سبع
صفحات وابن النديم في ثلاث . ومن المكثرين من التأليف في
عهد الحضارة الاسلامية حنين بن اسحق وثابت بن قرة وبعثوب
بن اسحق الكندي وقد ساق ابن ابى اصيبعة تأليف آخرهم في
خمس صفحات وكلها كتأليف حنين وثابت فلسفية علمية وهم
أئمة النقل من اليونانية الى العربية

ومن المكثرين من التأليف المجودين فيها حجة الاسلام
الغزالي والماوردي وعمرو بن بحر الجاحظ وجار الله الزنجشري
وهذان الاخيران من أئمة المعتزلة قيل في الاول ان تأليفه تعلم
العقل وفي الثاني ان تأليفه يكفي بهافي التفسير والحديث والنحو
واللغة ويلم البيان والادب . ومن المكثرين المجودين من أئمة
المعتزلة القاضى عبد الجبار قيل ان تأليفه التي وضعا في كل فن
اربعمائة الف ورقة ومن أئمة المعتزلة كثيرون من جاوزت
مؤلفاتهم المائة والخمسين الف ورقة

ومن المؤلفين الاول المكثرين من التأليف هشام الكلبى العالم
بالنسب واخبار العرب وابامها ومثالبها ووقائدها المتوفى سنة ٢٠٦

ذكر كتبه ابن النديم في نحو ثلاث صفحات وهي تزيد على مائة وخمسين وعندهم المدائني المتوفى سنة ١٥٢ في نحو اربع صفحات ومنهم المرزباني من اهل القرن الرابع قال ان تأليفه بلغت الوفا من الاوراق ومن الفقهاء والحفاظ المكثرين من التأليف محمد بن ادريس الشافعي وداود بن خلف الاصفهاني وابو العباس بن سريج المعروف بالباز الاشهب من ائمة الشافعية كانت فهرست كتبه تشتمل على اربعمائة مصنف وقيل ان تصانيف الحافظ ابى بكر بن البيهقي تبلغ الف جزء ولا بى بكر بن الخطيب صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ قريب من مائة مصنف والنسفي من كتب الاصول والفقه والحديث والادب والتاريخ ما يقرب من مائة مصنف وكان ابن سبعمين ممن صنف تصانيف كثيرة والاشعري خمسة وخمسون تصنيفاً .

وكان ابو حاتم البستي من اوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ قال ياقوت (١) وكانت الرحلة بخراسان الى مصنفاته وروى عن ابن ثابت ان من الكتب التي تكثر منافعها ان كانت على قدر ما ترجمها واصفها مصنفات ابى حاتم محمد بن حبان البستي التي ذكرها الى مسعود بن ناصر الشجري ووقفني على تذكرة باسمائها ولم يقدر لي الوصول الى النظر فيها لانها غير موجودة بينا ولا

معروفة عندنا وانا اذكر منها ما استحسننت سوى ما عدلت عنه
واطرخته وهما عدها فجاءت زهاء مائتين وخمسين جزء وبلغت
مصنفات ابي بكر بن فورك المتكلم الاصولي الاديب الذبحوي
الواعظ قريبا من مائة مصنف. ونلفظ المتكلم (١) تطلق على من
يعرف علم الكلام وهو اصول الدين وانما قيل له علم الكلام لان
أول خلاف وقع في الدين كان في كلام الله عز وجل المخلوق هو ام
غير مخلوق فتكلم العباس فيه فسمى هذا النوع من العلم كلاما
اختص به وان كانت العلوم جميعها تنشر بالكلام ولا يبي الحسين
الراوندي صاحب المقالة المشهورة في علم الكلام وهو الذي ينسب
اليه اليوم ظلم كل كلام فيه سفسطة ومغالطة وكفر من التأليف
نحو مائة واربعة عشر كتابا مع انه لم يتجاوز الاربعين من عمره
ولراس المتصوفة محي الدين بن عربي تأليف كثيرة ومنها
الممتع ذكر في اجازة كتبها للملك الممظم انه اجازه ان يروي عنه
مصنفاته ومن جملة كذا وكذا حتى عد ايضا واربعائة مصنف
والف رسالة عدد فيها كتبه كما جرت عادة بعض المؤلفين ان يترجموا
انفسهم ويذكروا مؤلفاتهم في رسائل خاصة مخافة ان يدس عليهم
بعضهم مالا يروقه ويقول فيهم مالميس فيهم .
وابن سميذ الاندلسي المؤرخ من المتأخرين من التأليف

منها المرقصات والمطربات والمقتطف من ازهار الطرف والطالع
السعيد في تاريخ بنى سعيد والموضوعان الغريبان المتعددا الاسفار
وهما المغرب في حلى المغرب - والمشرق في حلى المشرق - وغير
ذلك قال اسان الدين (١) حدثني الوزير ابو بكر بن الحكيم انه خلف
كتابا يسمى الموزمة يشتمل على وقرباير من رزم السكر اريس لا يعلم ما
فيه من الفوائد الادبية والاخبارية الا الله تعالى

ومن المكثرين من التأليف اسان الدين بن الخطيب و ابو العلاء
المعري ولهذا كتاب (٢) سماه الايك والفصون وهو المعروف
بالهمزة والردف يقارب المائة جزء في الادب قال ابن جاسكان:
وحكى لى من وقف على المجلد الاول بعد المائة من كتاب الهمزة
والردف وقال لا اعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد. ومن المكثرين
القاضى للفاضل قال ابن خلكان . اخبرني احد الفضلاء للثققات
للطالعين على حقيقة امره ان مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات
في الاوراق اذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد وكان الحاجب المنصور
ابو بكر محمد بن عبد الله بن مسleme المدعو بالافطس اديبا جليلا ومن
تأليفه (٣) الكتاب المظفرى للسمى بالتذكرة في خمسين مجلدا

(١) الاحاطة في أخبار غرناطة

(٢) وفيات الاعيان

(٣) نظم الدول للسان الدين

وكتب عبد اللطيف البغدادي الفيلسوف نحو مائة وخمسين كتاباً
وذلك في سياحات له طويلة دامت نحو اربعين سنة ساحها بين
العراق والشام ومصر والروم ومن المكثرين من التأليف والمتوسمين
فيه احمد بن ابان بن السيد اللغوي الاندلسي يعرف بصاحب الشرطة
وهو مصنف كتاب العالم في اللغة نحو مائة مجلد مرتب على الاجناس
بدأ بالفلك وختم بالذرة وله في العربية واللغة كتب أخرى ومثله
ابن سيدي الضري صاحب النخص والمحكم وغيره وهو من
المكثرين من التأليف والحفظ ومن المكثرين ابو اسحق ابراهيم
بن الاعلم الباطليوسي له نحو خمسين تأليفاً. وبلغت تأليف محمد ابي
طالب القرطبي المتوفى سنة ٤٣٧ - ٧٧ تأليفاً وألف عيسى بن عمر
النخعي نيفاً وسبعين مصنفاً في النحوى قال سيبويه جمعها بعض
اهل اليسار واتت عنده عليهم آفة فذهبت ولم يبق في الوجود سوى
كتابين ولو تنافس اهل العلم وغلاذ الكتب بمثل هذه الكتب لتعاورتها
الايدى بالنسخ ولما فقدت ومن المكثرين من التأليف عالم الاندلس
عبد الملك بن حبيب السلمى المتوفى سنة ٣٣٨ قال المقرئ (١) رأيت
في بعض التواريخ ان تأليفه بلغت الفاً ومن اشهرها كتاب الواضحة
في مذهب مالك. ولابي عمر والداني القرطبي من علماء القرآن مائة
وعشرون مصنفاً وكان يقول ما رأيت شيئاً قط الا كتبته ولا كتبتة

الا حفظته ولا حفظته فنسيته وآخر من له التأليف الكثيرة من أئمة
الاندلس ابو الحسن القاصدي المتوفي سنة ٨٩١ واكثر تصانيفه
في الحساب والفرائض

ومن عرفوا بسعة التأليف احمد بن ابي عبد الله على مذهب
الامامية فان ما كتبه باغ مائه تصنيف عددها يا قوت في معجم الادباء
. ومن فقهاء الامامية ابو الفضر العياشي ذكر ابن النديم اسماء كتبه
في نحو صفحتين . وية قال ان تأليف ابي جعفر بن النحاس تزيد
على خمسين منها شرح عشرة دواوين للرب وذكروا (١) ان محمد
بن جماعة من اهل القرن الثامن كان عجيوبة زمانه في العلم وليس
له في التأليف حظ مع كثرت مؤلفاته التي جاوزت الالف فان له
على كل كتاب قراء التأليف والتأليفين والثلاثة واكثرها من شرح
مطول ومتوسط ومختصر وحواش ونكت الى غير ذلك وكان
يعرف علوما عديدة منها الفقه والتفسير والحديث والجدل
والخلاف والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق والهيئة
والحكمة والزيج والطب والفروسية والرمح والنشاب والدبوس
والنقاف والرمل وصناعة النفط والكيمياء وفنون آخر وعنه انه
قال : اعرف ثلاثين علما لا يعرف اهل عصرى اسماءها .

ومن الذين اكثروا من التأليف احمد بن مكتوم من اهل

بمثل صنيعه بل بما هو اقبح واردى فتروج يديهم بضاعة البذاءة
والسفالة وتنتشر على وجوههم امارات الشقاق والاختلاف يمسون
متخاصمين ويصبحون متكافحين تحسبهم متحايين وهم اعداء وتراهم
اخلاء وهم بغضا وفي اليقين ان كل قوم كان هذا شأنهم تقل من
بينهم موارد الراحة والرفاهية ويفقدون معالم العز والسعادة وتعمهم
اصول النقم والشقارة

نقول هذا في شأن الانسان مع ملاحظة قولنا من حيث طبيعته
البشرية فان من تلك الجهة لا فرق بينه وبين جميع الحيوانات
لا غرض له سوى الشهوات البدنية يطلبها من اى طريق تيسر
بقطع النظر عن كونها توجب له حظه الفدر اورفعه المنزلة وسواء كان
في ذلك هدم مصلحه الغير اولا يعرف من الخير الا ما يصل لذاته
ولا يدرك الشر الا اذا وقع في حباله تكثر عثراته وتميل الى الشر
خطواته وتنزل اقدامه من طرق الهداية وتهوى به اعماله
الى مهواة الغواية

ولا يمكن للانسان ان يتباعد عن تلك الاخلاق القبيحة
والعادات الذميمة الا اذا تنورت افكاره وتهذبت اخلاقه بممارسة
المعلوم النافعة واغفنون المتنوعه فيدرك الاعمال الخيرية فيلزمها
وتبين له مفاوز الضلالات فيتجنبها

فان قيل كثير ما سمعنا مثل هذا القول من انه لو اجتهد

الانسان في تعليم المعارف والآداب لا عتصم عن فعل القبيح وسلك
 مناهج الرشاد وكانت اعماله خير أم مطلقاً وصلاً حاكماً مجتمعاً انما شاهد
 على خلاف ذلك فانه اذا كان الغرض من التعليم هو معرفة الخير
 من الشر وذلك يكون كافياً في المقصود قلنا قلنا يجهل احد من الناس
 الضار من النافع والخبيث من الطيب فكنا نعلم ان الحسد والكذب
 والكبرياء والنفاق والاختلاف والتخاصم والعداوة والبغضاء والمداينة
 والمرآء وغير ذلك من الأخلاق القبيحة والصفات الرذيلة توجب
 لمركبها المقت والهوان والذل والبوار وتبعده عن درجة اهل الفضل
 والكمال وتحط به الى مواضع اللانام ودرجات الاشرار ولا يجهل
 ايضاً ان الصدق والامانة والعفة والصدقة والمودة والاخاء وتهذيب
 الخلق ولين الجانب وغيرها من الفضائل توجب الرفعة لصاحبها
 وتوصله الى موارد النعم والاجلال وتوصله الى الانتظام في سلك
 العقلاء الراشدين والاذكياء المنقنين ومع ذلك لم تفقدنا تلك المعرفة
 شيئاً من هذا فانا نرى الناس لا ينزجرون بما يسمعون من المواعظ
 البديعة والحكم البليغة بل هم يعملون على ما تقتضيه شهواتهم الداتية
 لا يحترمون شريعة ولا يوقرون قانوناً حتى انه يمكننا أن نقول أن
 بسطاء الفكر وسذج الاخلاق اقل قبائح من سواهم انظر الى
 الاشخاص الممتنعين بالاعمال للشاقة كأرباب الزراعة والحياكة
 والتجارة الذين تشغلهم تلك الاعمال عن مخالطة سواهم من الناس

تراهم مجردين من المسكر والخداع والافاق والمرء تنطق طبيعة
الرجل منهم بما يخلج في صدره من غير تدليس وكذب أو تمليق
وبهتان وان دعتهم مصاحته للتكلم بشيء من هذا لا يجد لسانا
يساعده على التتميق والاطلاع أو الخلابة والدهاء لا يقولون بغير
ما تكتنه أفئدتهم ولا بوالون من لا تألفه نفوسهم وهذا مع
محافظةهم على ما وصل اليهم من أحكام الشريعة الفراء يؤدونه مع
البعده عن الرياء والنزاهة عن الكبرياء واذا نسبتهم الى الاشخاص
الذين نعدم في عرفنا أقرب الى التمدن وأعرف بمذاق الادب
لما عندهم من الفرص التي تمكنهم من داخلية القطر من البلاد
يسيروا اخلاق مجاورهم وتعلق بافكارهم بعض الحوادث
ويشوقون الى مطالعة بعض الصحف يستنشقون منها الاخبار
والفصص رأيت من الفرق بين الفئتين ما يفرنا من الاجتماع
البشرى ويزهدنا في استكمال اسباب الحضارة والعمران
ويجملنا خلفا استذاجة اهل البدو والمفارات لما نراه من نتيجة
الاختلاط والاجتماع التي هي المانسة في المواربة والخلابة
والتفنن في أساليب القذح في الاعراض وانتهاك حرمة
الشريعة بانتخار في فعل الموبقات التي تمجها الطبائع
السليمة وتأنف منها الانفس الأبية الشريفة ثم اذا حولنا النظر الى
الاشخاص الذين درسوا العلوم والفنون النافعة كما تقولون رأينا

الخطب اعظم والشر أوفر فانهم عوضا عن معرفتهم ما حصلوه من
 التعليم والدراسة من الفكر القويم والدراية الواسعة الشعوب فيما يعود
 على انفسهم بالكمال حتى ترتفع منزلتهم ويعلمو صيتهم وعلى وطنهم
 بالرافاهية والعمار والتقدم والانتظام تراهم يصرفون ذلك في سفاسف
 الاعمال وقبيح الخصال فلا يكون له التقدم على غيره من الذين
 لم يطالعوا الكتب ويتصفحوا التواريخ الا يكون اعرفهم
 بأساليب الخداع والممارسة واشدهم كالا لحفظ الصنائع والاحقاد
 يلاق بغيبضه ببشاشة وجهه وطلاقة لسانه يرب في الظاهر عن مودة
 واخاء ومحبة وصفاء مع أنه يترصد به الدلة ويسوقه الى بحر الخيف
 والمنون وهذا فضلا عما يتريه من الكبر والخيلاء ينظر الى الناس بعين
 السخرية والاستهزاء والنقيصة والارذال لكونهم لم ينالوا ما عنده من
 الخبث ولم يدركوا ما أصابه من المقت فاذا كان هذا ما نشاهده في أخلاق
 ذوى الخدق والدراية والكياسة والنجابة فدعني أيها الواعظ سلكا
 مسلك ذوى البله والبساطة قاطنا في أحياء العشائر المتقشفة استنشقا
 الارواح النقية واستجلب من الغلوات ثمار بقدر ما تقوم به بقي
 مما تقدر المعدة على هضمه وتكون في امن من خطر ما أظن ذلك اقرب
 الى السلامة من مخالطة اهل العمران والدخول في حوذة ذوى العرفان
 نقول جوابا عن هذا المأذكوتة من أن الغرض من التعليم هو
 معرفة الخير من الشر فهو المراد ولكن قولك قلما يحبل أحد من الناس

الضار من النافع الخ. فغير مسلم لأن المراد من المعرفة استكناه تلك
 الاخلاق وادراكها ادراكا صحيحا مع الجزم الثابت بالدليل بنحوها
 وليس ذلك بالامر اليسير او الخطة الهينة والاشخاص الذين يرددون
 تلك الصفات زاعمين المعرفة بحقائقها فذلك لما يرونه بأنفسهم من
 الآثار عندما يحقدون او يرمون بذور أو تصل اليهم يد المعروف ولربما
 ذكروا ذلك تقليداً من غير شعور مطلقا بالمنفعة أو المصرة وعلى
 الحالتين فيدفعهم وبين المعرفة التي شرحناها بون بعيد ثم لانكر عليك
 بعض ما ذكرته من اخلاق الذين تعلموا العلوم ودرسوا الفنون
 ولكن ينبغي ان يعلم ان ذلك ما اعتراهم الامن اختلال طرق التعليم
 وعدم التربية فان الانسان اذا كان يميل بطبعه الى الشهوة الحيوانية
 ومعلوم انه في حال صغره يكون مجرداً عن الملكات خيبرها وسرها
 غير شاعر بمضار ما يرتكبه من الاخلاق الدنيئة وغيرها آسف على
 ما لم ينله من الآداب ومكارم الاخلاق فتسوفة الطبيعة الحيوية الى
 موارد ما من غير تفكير أو تمقل فيما ينجم عنها من القباح والدناءات
 وتعودها الجوارح والاعضاء حتى نصير ملكة للنفس ومحور للفكر
 وتتخلط في تلك الحالة للطبيعية على القوى العقلية لتستخدمها في
 تدبير تلك المصالح على الوجه المألوف لها فاذا شتم الانسان في تلك
 الحالة بطالمة العلوم النافعة وتعليم الآداب المهدبة تمت قواه المفكرة
 وتفرغت مداركها ولكن في حالة السطوة لجيوش الطبيعة فتفسرها

على مجاراتها واتباع مسالكها مع العلم بخباياها ووخامة عاقبتها وأبى
 الأفكار إلى الإقلاع عن تلك الخطة الذميمة لما فيها من المضاراة نوعاً
 وللبلايا الكثيرة فيقيم التضارب والتجاذب بين هاتين الفوتين فإذا
 استكملت معدات الإدراك وتحصنت بتأرييس الكياسة والرشد
 جبرت الطبيعة على مطاوعتها والدخول تحت قدرتها نحو كمال جهده
 الكمال وتوجهها إلى قبلة الرشاد تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر
 تعلم الخير فتطلبه وتسمي فيما يعود على العموم بالعمار والفاهية والتقدم
 وتطرح عن كمالها حب الأثرة والأغراض الشخصية فتلك الفئة هي
 التي نجحت بشعرات التليم وتنتائج المعرفة أما إذا انتصرت جيوش
 الطبيعة وبددت جموع الأفكار انقلبت العلوم مشعوذة والفصاحة
 مفسطة ولا شك أن الجاهل البسيط أقل ضرراً وأخف أذى ممن
 أصيب بسهام الطبيعة مع مراجعة الفنون وتصفح كتب العلوم فإن
 هذا الوسع أدارك لا بواب الانتقام وأتقن وعاية لطرق الضلال فإذا
 كانت تلك العصاة هي التي نويتها في مقالتيك أيها الممرض قيات
 منك ما عرته لها ولكن ذلك لا يقدح في المطلوب فإنهم إذا
 اتقنوا علم الرياضات والطبيعات وغيرهما من العلوم الصناعية
 النافعة في بابها فذلك لا يفيد النفس من حيث التهذيب في شيء بل
 غايتها التبحر والتفنن في العالم المادي ومعرفة عناصره وخواصه ومرادنا
 من العلوم علوم التربية والأخلاق فإذا لا قبل منك اختيار البله

والجلوس على بساط الجهل لذلك فاني آتيك بما تنقي من الضير
ويبعدك من تلك المخارف وبجيبك في جنى ثمار العلوم والتسابق
في ميدان الفنون الا وهو الاعتناء بتربية البنين والبنات في حالة
الصغر زمن البساطة والسذاجة فانهم يومئذ طوع اليه يذهبون
معك الى أى طريق أحببت ويدخلون معك من أى باب قصدت
ولا تجد منهم عناء ولا نصيبا ولا ممانعة ولا غضبا يشيعونك كظلمك
وبطيعونك كظلمك فمنهم على الاخلاق الجميلة والصفات الحميدة
ودربهم على ما فيه شرف النفس ونزاهة الاعمال وأياك أن تدعهم
يأتون قبيحا أو يافظون بسوء متوهم ان ذلك مباح لهم حيث لم
يناطوا بتكليف ولم يدخلوا تحت شرائع النأديب فان ذلك ربما ازمهم
بعد الكبر فاذا تمهدتهم كما ذكرت لك وألقيت اليهم بعض المطالب
الاولية والمقدمات البديهة من النصائح والحكم يشبون على تلك السجايا
العالية والطباع السليمة ثم ابعثهم الى مناهل العلم وموارد الحكم
يتخذون لبانها ويتوشحون بردائها فينتفع الوطن بمهارتهم وتفهمهم
في الصنائع العظيمة القيمة الجزيلة الفائدة وينشرون في انحاء ريات
التمدن والاصلاح والثروة والفلاح مع طهارة الذيل وبمد الهمة
وثبات الجأش فاذا كانت هكذا أبناء الوطن لا غرو ان تحفق على
دوسهم ألية السعادة هناك يفوزون من الامة بالشكر الجزيل
والفضل العميم

غوائل الفقر

كثيراً ما سبب أضراراً ونشأت منه شرور أخلت بالفضائل
 الخليفة ودعت الى ارتكاب المذموم وعادت على الهيئة الاجتماعية
 بالوبال فحرماتها التقدم ونقصت من عدد افرادها فضعفت قوتها
 وعجزت عن نيل الرغوب ولم تقو على دفع المرهوب
 يصاب الفقير بداء يرتفع باقل دواء فيقعده العوز عن استدعاء
 الطبيب وطلب الدواء ويغنيه المرض من التماس القوت فيجلس بين
 علة تقرض لجهه ومخمصة تمض بناها حشاه ولا يلبث حتى يموت
 وتوق نفسه الى اجتناء أزهار الفضائل من أكام المعارف والافلال
 واقف في طريقه يسد كل أبواب الوصول عليه فلا يجد ما ينفقه على
 النعيم ولا ما يقوت به مدة التهذيب فيقف بحسرة نذيب فؤاده
 ونقائص تغالبه بقوة لا يجد لها من دافع فتستولى عليه وتتمكن
 من ذاته حتى تصير ملكات ثابتة كلما تقادم العهد تقوت أصولها
 وزانت رسوخا . وعلى فرض ان ينال بعضا من العلم فلا يمالك ان
 يحفظه ولا يستطيع البقاء عليه لتشتت أفكاره وتفرق باله واشتغال
 خاطره باداء ما تطالبه به الطبيعة من قوت يقوم بنيته ويرد جوعه

مع تقطع الاسباب به وبعد الوسائل عنه فيتناقض ادراكه ويضعف
إحساسه لوقوف مددهما من العلوم وتذكرها والفنون ومدارستها
مع توجههما لأمر يكفل وحده حلول الوهن وحدوث النقص بهما
ويلزم باداء دين وجب في ذمته نير تكب في نفيه عنه كل مذمة
وينتحل كل بهتان وزور ويحسب انه يرفع من اثقاله ويخاف بمض
ماوجب عليه

ومن هنا اتضح أن الفقر موجب للنقص في الانفس والأبدان
ومضر بالعلم والأخلاق وهو بذاته نقص في الاموال فقد أجمع
فيه جميع المضرات واشتمل على أصول المهالكات ومن ثم قال الشاعر
غالبت كل شديدة فغلبتها والفقر غالبني فأصبح غالي
إن أبدى أفضح وإن لم أبدى أقتل فقبح وجهه من صاحب^(١)
وانا لو تبيناه من حيث أسبابه الموجبة له والمداعبة اليه لوجدناه
على نوعين: اختياري وقهري. ونعني بالاختياري ما يكون للانسان
دخل فيه، ونريد بالقهري ما خالف ذلك وانما حدث بحكم المقادير
وهذا الكلام لنا فيه وانما الكلام في النوع الاول وهو ما كان
لاختيارنا دخل فيه ولقدرتنا قوة على درئه اذ باجتلابه ندم ونلام
وبالتباعد عنه نحمد ونسعد ونرتاح من أوصاف الاعمال البدئية

(١) هذان البيتان نظم مقاله على كرم الله وجهه : (مارست كل شيء
فغلبته ومارست الفقر فغلبني لاني ان أذعته فضحني وان كتمته قتلني)

وفاق الافكار المضعفة وتتفرع لتنمية الازدهان وتربية النفوس
 وتطهيرها من دون الاخلاق الخبيثة الموجبة لامذاب السرمدي
 والتألم الأبدى وتحليتها بالفخائل الجميلة الداعية للسعادة الدنيوية
 والبهجة في الدارين وأغلب ما ينشأ ذلك عن الكسل والبطالة
 وإهمال الصنائع والحرف الرفيعة وترك الاشتغال الجليلة النافعة
 فان الكسب وقف على سبيل الاعمال وقد جعل الله بازاء كل حاجة
 كسباً مخصوصاً لا تسد الا به فاذا لم يكن عمل امتنع الكسب
 وقامت الحاجة تطلب بما يسدها وعن التساهل في حفظ الوجود
 بالاسراف فيه والانفاق منه زيادة عن القدر المطلوب حتى يتسارع
 اليه الفناء ويذهب في أقل قليل من الزمن وعن مطاوعة الشهوة
 في كل ما قضت به فانها تقود المرء الى ارتكاب أمور تتولد عنها
 لوازم توجب عليه نفقات وتكلفت بتكاليف لا يستطيع النهوض
 بأعبائها ومن هنا يعمد الى القبائح يفعلها والمحرمات يأتيها بدون
 مبالاة أو مداراة ظناً منه بان ذلك يخفف عنه ما حمل عليه وذلك
 مثل كثير من ضمهفاء العقول في بلادنا المصرية فان الواحد منهم
 على ما به من قلة الكسب وضعف الهمة تحمله الشهوة هلى أن
 لا يكففى لواحدة من النساء بل ان كانت تحبه واحدة منهم تطلب
 انية وان كان لديه اثنتان رغب في ثالثة وهكذا حتى يبلغ منهم
 دداً لا يبيع له الدين الزيادة عليه فيترك واحدة ويطلب أخرى

الى أن يعوزة التبادل وكثرة الاولاد ويبقى مطالبه بصداد المفاارقة
ونفقة المعتدة ومؤونة الباقية ولوازم الاولاد حالة كونه لا يستطيع
الى آداء شئ من ذلك سبيلا فيتخذ كل وسيلة مذهومة لرفع هذه
المطالب عن كاهله بان ينكر صداد زوجة فارقتها أو يرمى بولده في
الطريق لئلا تظلمه المارة أو تأكله الوحوش أو يودعه عند من لا يهتم
شأنه ولا يهتمي بتربيته فيترى على الخساسة ويشب على الدناءة أو
يستعمل للسرقة واختلاس أموال الناس حتى يصيب منه ما يكفيه
ان كانت له قدرة على ذلك . فهذا الشخص قد أضرمه بنفسه وبجملة
نفوس وجلب الفاقة عليه وعلى كل من تضرع عنه أو دخل في
حوزته وانتمى اليه وأنه لم يستحق اكل اللوم والمقت اذ هو الذي
قالع بأصبعه عينيه وأورد نفسه موارد الفاقة وأوقع في شرك الاحتياج
الداعي الى كل هذه المضرات وقد كان في بعد عن جميع ذلك لو
اقتصر على الواحدة ولم يظلم سواها وكذلك ترى بان منهم من
يكون عديم الكسب رأسا لا يستطيع أصابة القوت لنفسه فضلا
عن غيره ومع ذلك يدعو الجهل الى أن يضم اليه امرأة لا تلبث
معه أن تأتي منه باولاد ثم تسوء معاملته معها ويكثر النزاع بينهما
حتى يفضى الحال الى التفرق فيأزمه الشرع بنفقة الاولاد ومن
المعلوم ان ما يمكن الجماعة مجتمعين لا يقوم بها حال الافتراق فيشدد
الامر عليه ويستطيع القيام بما ألزم به فلا يجد اليه سبيلا

الا فرار من بلدة الى بلدة أخرى فلانتاله فيها العيون ويترك أولاده
 يتضورون جوعاً أو يقتل الأولاد ويستريح مما كلفوه به. ومن
 ذلك ما فعله بعض السفهاء في مدينة رشيد حيث اشترى جوهرًا مسما
 من أحد العطارين بذلك الثغر وأطعمه بنتيه تخلصا من نفقة وجب
 اداؤها عليه لهما مدة بقائهما عند والدتهما المطلقة ومقدارها لا يتجاوز
 الاربعه غروش ونصف في كل يوم وترتب على ذلك ان ماتت احدهما
 فحكم عليه مجلس الاستئناف بالاقامة في ليمان اسكندرية مدة خمسة
 سنين لاعترافه بذلك وخفف عليه القاب لكون والدته البنت
 تنازلت عن دعواها شرعا وسياسة وحكم هذا المجلس أيضا على العطار
 الذي ادعى المشتري انه ابتاع هذا الجوهر منه بالاقامة في سجن
 المحافظة خمسة وأربعين يوما وان لم يعترف بذلك ولكن حيث
 انه خالف الاصول وابعاه بدون أخذ ضمانته حكم عليه المجلس بهذا الحكم
 (هكذا ورد لنا من مجلس الاستئناف بدون ان يبين وجه
 ثبوت الجاية على العطار فلهذا قامت عنده دلائل أخرى غير الاعتراف)
 وكل هذه الاسباب التي ذكرناها للفقر اختيارية في طائفة
 الانسان التباعد عنها ودفعها. فمن السفه وضعف الرأي الاقتراب
 منها واجتلابها بعد تبين نتائجها ومالت اليه بل من المثلث اعتناقها
 اطراح اسباب الكسب والتقاعد عن السعي لاصابة الرزق من مواد
 صناعة لاسيما في بلاد كثيرة الخصب رائجة الاسواق متوفرة

وجوهه القانونية مرتفع بها مقام العلوم ومنار المعارف كبلادنا المصرية
وليس سعي المرء لالتباس العيش والتشبث بأسباب الغنى ودفع
ملهمات الفاقة مما ينافي توكله متى كان بعد الأسباب وبهيء الوسائل
معتقداً بأن التأثير كله لله جل وعلا ولهذا قال صلى الله عليه وسلم
رداً على من قال اطلقتها متوكلاً على أعقل وتوكل (أى هي) ما تقدر
عليه من أسباب الحفظ وبعد ذلك سلم الامر الى الله) ومن هنا حرمت
العلماء على الشخص أن ينقطع عن الاعمال معتقداً بأن الله يرزقه بدون
أن يعد سبباً أو يتشبث بوسيلة . وحكم حجة الاسلام العزالي في
كلامه على مواضع الرجاء بحكم من يلقى بذرا في أرض لا تقبل
الزراعة . ثم يرجو أن يخرج الله منها نباتا . وبالجملة فان الكسل
والبطالة والاسراف والتبذير واتباع الله والامتناسال في الشهوات
كل هذه الامور موجبة للفقر والفاقة مذمومة على لسان كل شارح
منهى عنها في كل شريعة وقانون وصاحبها كلها أو بعضها شقي في
الدنيا معذب في الآخرة وان العمل والصناعة والاقتصاد ومخالفة
دواعي الله وغيرها مما يدفع عادياس الفقر أموراً مأمورها واجبة
شرعاً وعقلاً على كل فرد في كل وقت محمودة على كل لسان وذو
هاهم السعداء الفائزون بالسمواتين والمبتهجون بالنعيمين فهم في
الدنيا أرباب مجد وفي الآخرة أصحاب سعد

المومسات

للطيب للذكر المرحوم الشيخ نجيب الحداد
 المرأة البغي خلقية ساقطة دفعها يد الفقر نفس كانت نقية
 طاهرة فزايها العفاف والطهر وثمره كان يرجى منها الصلاح
 والخير فاسدتها حوادث الدهر . بل هي ربشة حمامة بيضاء نثرها
 عاصفة الايام وشمرة سوداء . كانت تزين هام صاحبها قبل أن
 سقطت عن الهام . فاصبحت شيئاً قدراً تعافها يد المتناول وتدوسها
 الاخفاف والاقدام . فهي كائنة حية ولكن كأنها
 ليست من الاكوان . وانسانة كاملة الخلق تسير في طريق
 الانسان فيزدريها كأنها لم تكن من الانسان . بل هي نفس فسدت
 فعاقتها صالحات النفوس وخمر صيرها الدهر خلا فلم يعد لها
 نصيب من الكرموس . وصورة خلفت لتزين صدور المجالس
 فأصبحت لا تستحق مقام الاعتاب . وزهره ناضرة رمتها الايام
 عن غصن الانسانية فاضحت ملقاة على التراب وسجية أنشئت
 للحيية والادب فتمبرأ منها الحياء وأنكرتها الاداب . ووجه براه
 الله ثم ستره بنقاب الوقار . ومقلة كانت تغضي حياء وعفة قد زانها
 لا طراق والانكسار . وجبين كان يؤثر فيه النسيم رقعة واطافة
 لجاءة بابل ياتي فيقف على الشجرة فوق رأس الشيخ وينتظره

حتى يفرع من الصوت فيأخذ في النريد الشجبي مدة ثم يطير
 خفيئاً قليلاً ثم يعود فيغرد كما كان ولما طال امره وفطن له الجميع
 أحب احدهم أن يعرف الى اين يذهب ذلك البابل ثم يعود فراقبه
 وهو طائر حتى رآه وقع على شجرة رمان بالقرب منهم ودنا من
 رمانة وجعل يمد منقاره اليها ثم يرفعه فصعد الرجل الى الرمانة
 فوجد الطير قد نقرها حتى أفرغها وجاء بجبات من العنب فوضعها
 فيها حتى نضرت وجعل يشرب منها وبسكر كما رآه وهو نهاية
 العجب في سكر الحيوان واختراعه للمسكرات . ولعل السبب
 في ذلك أن البابل كان يأكل من العنب فيشمر بنشوة وطرب فلم
 على النماذي ان ما يصيبه من تلك النشوة انما هو من عصارة
 العنب فمضى الى أن يستخلصها وحدها من القشر فلم يجد لديه
 سوى هذه الطريقة من نجويف الرمانة بخزن العنب فيها ثم
 يشرب عصاراته فقط تقريباً على نفسه من مسافة السكر فسيحان
 الخلاق العظيم

ولقد ختم ذلك الطيب بمثله عن سكر الحيوان بحكاية
 غريبة في بابها رواها عن سمكة سكرت فقال ان بعضهم كان
 عنده سمكة في بركة فجعل يشرب مع أصحابه ويلقي فضلات
 الكووس في تلك البركة والسمكة تشرب منها حتى سكرت
 ثم زاد بها السكر حتى أصابها مثل الجنون فدارت في الماء مدة

ثم أقبلت وصدمت رأسها بشدة في جوار البركة فانت شهيدة
الحجر وذلك من غرائب المسكرات

وتكاد تجرحه الانظار . فغضى ذلك الوجه ما كان عليه من برقع
الحياء وارتفعت تلك المقلة من أطرافها وانكسارها فلم يمد فيها
خجل ولا استحياء وصاب ذلك الجبين على الابصار فلا يلين
لنظر ولا يندى بماء

تلك هي البغي تتناول حاجاتها من غير يد الشرف وتسير
في مجاهل حياتها على طريق الانسانية وتجنّي ثمار وجودها من غير
اغصان الحلال وتزين رأسها من جواهر البغاء بما كان دمه على حالها
في جفن الآداب واللعفاف وتبرز للناس من حليها وحملها بما يظهر
فساد النفس ويكشف عوار الاخلاق وتبدي للعيون من زخرف
جمالها ما تنكره النفس والقلب وتتقرب الى كل انسان بما يزيد
بعدها عن منزلة الحرمة والجلال فهي تريد ان تملوا بظواهر الزخارف
والزينة فلا يفيدها ذلك سوى ان تسفل في حقيقة الحال وتحاول
ان تكتسب بجمالها عزة الحسان فلا تلقى سوى المهانة والاذلال
وقد عرفت ان الرجل يخذلها بما يبيدها من تقربه واقباله فجملت
لنفسه مثل ذلك بما تظهر له من زيف ودادها وما تأخذ من عيون
مواله وقد ساوته بالوصة والعار بما اشتراه من وصالها وما باعتها من
صالحه صفقة خاسرة على المتعاقدين جميعاً فما ربحت من ابتذالها

ولا ربح من ابتذاله

ونحن لانلوم المرأة الساقطة في هذه الوهدة السافله لاننا
لاندري تحت أى ثقل سقطت ولا اية يد من ايدى الاضطرار
والحاجة دفعتها الى هذه المهواة البعيدة والحالة الدنيئة فهوت مرغمة
مضطرة تحت عوامل الفقر او تحت حوادث الايام وكوارث
الذهر فانما هي نقطة ندى صافية علمتها يد الصباح على غصن زهر
يانع فما زالت يد الحوادث تمز ذلك الغصن وريح المصائب والفتن
تعبث بتلك النقطة النقية الصافية وهي تمسك بالغصن حتى غلبتها
جاذبية الاضطرار وفصلتها عوامل الاقدار فسقطت على التراب
مهانة صاغرة بدلا من ان يرشفها فم الفجر بشفاه الشمس والشمس
وأصبحت وهي طينة سوداء وحما مسنونا بعد ان كانت من بهاء
النور في مثل تألق الحجر الكريم . وانما اللوم كل اللوم على البعض
من شباننا الادباء الذين أقبلوا على هذه المفاصد المضررة والدنيا
الشائنة لا يخشون منها طاقبة ولا يحرصون في جنبها على شرف ولا
دناءة نفس . وعهدنا ان الفتى منا ليا نف ان يشتم الزهرة من الورد
يرى صديقه قد شتمها قبله وان يشرب الماء من الكوب يكون غيره
قد شرب منه امامه مع انها مسألة لا يدخل فيها غير حاسة هي حاسة
الشم او الذوق فكيف يحتمل الشاب المترف الاديب ان يقبل على
امرأة من هذا القبيل يشترك فيها كل حواس نفسه وجسده وهو

يعلم انها لعبة كل فتي وهورد كل طالب وعلالة كل سفیه وانها لم
تصل اليه الا بعد ان تجاوزت الناس قبله ولعبت بها ايدي ألوف
من الرجال دونه وانه بعد ذلك لا يرد منها على ادب ولا يأنس منها
الى لطف ولا يشعر في جنبها بشيء من مودات النساء واطف
الغزل وانها امامه آلة صماء لا تقع نفسه منها على عاطفة وداد ولا تقع
عينها منه الا على موضع الدرهم والدينار وبئست تلك صحبة ينفر
منها من الانسان سوى الحيوان ذلك فضلا عما يكون في تلك
المرأة من الامراض المعدية والادواء الخبيثة القنالة التي يلهو بها
الفتى ساعة في سكرة طيشه وصباه ثم تعقبه ندامة الأبد وبلوى
العمر وضياع الصحة وفساد النسل وسوء الاحدوثة والذكر وخطر
الموت العاجل والانحطاط السريع وماتبع ذلك من بلايا المرض
وعوادي الاعتلال والاسقم ولا سيما في هذه الامراض النسائية التي
لا يخجل المرء من بيان مرضه الابهى ولا يستتر اعتلال صحته عن
الناس الا فيها وكل مريض يشفق عليه اخوانه ويرثى له صحبه
والسامعون به الا مريضها فانه لا يجد الا عبارات اللطعن بدل الرحمة
ولا يقال عنه سوى المذمة والقدرح بدل الرثاء والشفقة ولا يكون
عرفان دائه الا سببا للامامة والتمتعين عوض الأسف والتمنية. ثم
ذا ارتكب جريمة الزواج بعد ذلك جاء اولاده سقماء الأبدان
منعاف البنية مهازيل الجسوم لا يشعرون بحلاوة العيش الا وهي

مقرونة بمرارة الاسقام والافواج والحمية والمدارة وقد جنى عليهم
ابوهم وما جنوا على أحد ولحنت اراضيهم وعدوى ايهم الى امهم
للبريئة المظلومة التي ذاقت عواقب زوجها وشاركتها في بلاياه وعمله
فيما لا تشاركه به من سابق لهوه وسروره وهي لاشك جريمة
كبيرة ليست جريمة القتل باعظم منها لان جاني القتل باعظم منها
لان جاني القتل يجنى على واحد ثم يلاقى عقابه وجاني هذه الجريمة
يجنى على نسل بأسره ولا عتاب له ولا جناح عليه سوى ما ناله
عليه الطبيعة في نفسه وابنائها فيجنى على نفسه وابنائها فيجنى
على نفسه وعلى سواه

ولقد يتول البعض ان هؤلاء المومسات سياج الحرائر بمعنى
انهم يصرفن الشباب عن اللعب بالمصونات الى اللعب بهن فتصان
بذلك الالاف والاعراض ولكن فاتهم ان أولئك البغايا اذا كن
سياجا يمنع الشر عن ربات الجمال فهن سياج ايضا يمنع الخير
عن الفتيات والعازبات اللواتي قضى عليهن الدهر بالقعود في
منازلهن لينال غيرهن من النساء من هو نصيبهن من الرجال
وما هو مكتوب لهن من عيشة العفاف وراحة الزوجية ولذة
الاقتران والائتلاف . فيا حبذا لو تأمل شبائنا في عواقب
ما يقدمون عليه من هذه الشؤون الفاسدة واخذتهم في
هؤلاء المومسات عزة واذمة الشباب ان لم يأخذهم غير ذلك

من خوف العقبي وسوء المصير فرفعوا همهم الى فتاة طاهرة
النفس نقيّة القلب واغرة الادب طيبة الاخلاق فقضوا في صحبتها
هذه الحياه تشاطرهم اكدارها وتزيدهم من محاسنها وتعقب لهم
ما به قرة العين من الحياه الدنيا في مال أو بنين ولو لم يكن
للفق من هذه القرينة الاضيانه النفس ووقاية الجسم ومراعاة
الادب وتوفير المال لكفاه العقبي الصالحه والعيشة الوافيه والسلام



الفتى و البغى

يخرج الفتى عندنا من صفوف مدرسته ومقاعد اترابه
فيحسب انه بلغ قمة الكمال وأدرك غاية المسعى وانه أصبح رجلا
مستقلا تجرى سفائن رغباته على بحر الحياة مرخاء الحبال مطلقة
الشرائع فتتفتح عينه لنور الاستقلال ويتسع صدره لتسليم الحرية
والمرح ثم يلتفت حوله فيرى تيار الشبهة مندفعاً الى نوادى الفمار
او حانات الاقار ويرى الفتيان من جانبه تنهافت افواجا الى
مغازلة الحسان ومعاورة بنت الحان فيجربى مع ذلك التيار مندفعاً
بشدة تلك الامواج من جانب وبما ركب فيه من طبع اللهو
وخفة الشاب من جانب حتى يتوسط ذلك اليسر الواسع الذى
هو بحر الملاهى والغواية فلا يجد منه سراحاً يأوى اليه ويفيب
عنه شاطئ الطهارة الذى ابتعد منه فلا يعود يتدر ان يرجع اليه
فيصبح رجلاً ولكنه يستخدم الرجولية فيما يعود عليه بالخمران
والوبال ومستقلاً ولكن استقلاله الفنية النائية بين عواصف
الانواء فى موج كالجبال
ولقد يغدر الفتى يتعاطى الشراب وبما فى كؤوس الراح انه

يجد فيها نشوة السكر ولذة للشباب وزهو الحياة واحتقار الدنيا
وهو يحبها واستصغار العالم وهو يجل لذاته وملاهيته وانكشاف
أسرار الطبيعة له من وراء زجاج الكاس وظهور خفايا النفس ماثلة
إمام الشراب وأنه يشتري بماله لذة وينفق ساعة شربه على ساعات
لهو وسكر ويخرج من الحانة يجر الذيل تهاً ويصغر خده عجباً
وهو يعتقد أنه ابتاع الكثير من السرور بالقليل من المال في هذه
الحياة الدنيا التي لا يشتري فيها الدرهم من المسرات إلا بالقناطير
من الأموال

واقدر يعذر الشاب يجالس حسان الحانات وبنات الشراب
محاسنة ضحك ومزاح في حديث لهو وفكاهة أنه بذلك يظهر
جوهر عقله ويخلو صفيحة فكره ويطلق عقله لسانه ويطرب من
حديث جليسه كما يطرب جليسه من حديثه إذ ليس افتق للسان
وأبرز لمكنونات الصدر وأجلى لعواطف الوجدان وأبين لمحاسن
الكلام ونوادير البداة والفكر من حديث النساء ومسامرة
الفتيات في مجلس صباه وطرب ونوادي فكاهة وحربة مجال فهناك
تخرج لكاهة بنت ساعاتها وتلقى العبارة والنكتة على بداة قائمها
ثم ينصرف أصحابها وقد تركوا وراءهم كل ما كان وخلص كل منهم
إلى منزله ولم يبق بقاء شيء مما كان يلقى حواله من حبايل
الشیطان

ولقد يمدد الفتى على الانفاق والتبذير انها لذة لا تعرفها الا
نفوس الكرام ولا تشعر بنعوتها الا انامل السخاء . ولقد يمدد
ايضا على بعض العاب المقامرة انها سلوة النفس في اوقات فراغها
وصورة الدنيا في اختلاف سمودها ونحوسها وما لب القلب يشهد
على الرواية الفريية في تغيير مناظرها وانقلاب شؤونها بين
الانقباض والانبساط والحزن والسرور

لقد يمدد الفتى في كل ذلك انه يسعى اليه ومعه عقله وينال
المسرة فيه وهو يعلم من أى باب ينالها ويضحك على الخمر في شربها
وهو يعلم انها ستضحك عليه عند سكره ويمازل فتاة الحانه مازحا
وهو يعرف انها تمزح معه في مغازلتها ويخسر في المقامرة او
يكسب وهو يعلم من أين يأتيه الربح او الخسران ولكن ما عذر
الشباب الاديب وقد ملأ رأسه علما وحشا صدره حكمة وافهم
فؤادة ادبا ودرسا ووقف على امور الدنيا بين دفتي كتابه ورسم
حقائق العلم والعرفان على صفحات قرطاسه ثم يجلس الى المرأة
المومس والفتاة البغي مجلسا تشترك فيه بنت البغاء الجاهلة مع
علمه الواسع في التجربة منه والضحك عليه ويقف فيه بين
يديها موقفا مضحكا لا يمدده عليه معقل ولا يعينه فيه الادب
والعلم ونحن نصور هنا على قدر ما يسع به المقام تبصرة لفتياننا
الادباء وفكاهة للقراء الكرام

ذلك ان يتصور القارىء حانة منفردة او ناديا عاما جاست
 في احدى جرابه امرأة من نساء اللهيكت والبقاء وجلت تدير
 عينيها فيمن حولها من الفتيان كما يدور الجزار بين كباشه
 ويستسمن ما حوله من نعالجه حتى يقع نظرها على أحد اوائك
 الاغرار فما هو الا ان يراها تديم النظر اليه
 وترى ان حبالل لحظها قد علقت في فؤاده حتى ينهض
 اليها باهيا بنفسه مفتخرا باختياره دون غيره وهو لا تكاد تسمه
 الدنيا سرورا بانتقائه وعزة بانتخابه وان جماله قد راق في عينيها
 دون سائر رفاقه ثم يجلس امامها جلسة المتأدب الخاشع فيقابلها
 بنظرات اللتعلق الخادع ثم تدور بينهما رسل العيون وتختلف
 لحظات الابصار وقد اسكره الفروز فصار ينظر اليها من عين
 قلبه واسكرتها خمرة الفوز عليه فصارت تنظر اليه من طرف
 عينيها ثم يبدأ هناك التمثيل المحزن ويتخذ ذلك المسكين في تلك
 الرواية الدور المضحك فيذيب فؤاده غراما ويستنزف قريحته
 منادمة واسترضاء ويفيض نفسه على قدميها حبا صيحجا وودا
 خالما ويلقي جوهر قلبه بين يديها كلاما صادقا وفزلا حقيقة
 ويستفرغ خزائن صدره لديها عبارات رقيقة وادبا رائعا ويتفنن
 في ارضائها ومازلاتها تفتنك يخرج من صميم فؤاده ويستقطر ما
 ذهنه وهو يحسب انه قد ملك السعادة بقربها ودانت له الجنة

بدنوها وتجلت له زخارف الحياة في محياها فيزداد لديها طمرا
وينوب بين يديها صباية وغراما يخرج من قلب طاهر وفكر
سليم فيرن منها في أذن فاسدة ثم لا يتعداها الى ذلك القلب
الاثيم وهو يحسب انه بهز فؤادا حساسا وانه يفاضل نفسها طيبة
وان كل ما يخرج من قلبه يتع في قلب نظيره صباية وهياما وفاته
ان الجلاسة امامة نزل الخداع والفتن عليه وانها لا يكلمه الا لسانها
ولا تنظر اليه سوى عينيها ولا يباغ كلامه الا بعد أذنيها وانها
تموت عليه ضحكا وهو يموت عليها غراما وتمكس معاني اقراله
صدى مقادرا بعد ان تصالها صرورا حيا يخرج من اعماق القلب
وتنطق به شفاه الضمير وانها آلة مرنة تلتوي تحت غمزا انامله
فيحسبها قد اطمانت على الشكل الذي يربدتم لا يلبث أن يتركها
حتى تعود الى مثل ما كانت عليه فيناجيه لسانها بالحب وقلبا
لا يدري شيئا مما تقول وتلقى عليها مقلتها نظرات الهوى ونفسها
بعيدة عن تلك النظرات وتذرب أقرالها لديه رقة وصباية وفؤادها
من وراء ذلك أفسى من الجلود وتمده موايد الامانة والوفاء
وفكرها مشغول كيف تسليه وباية طريقة تنخلص منه حتى يقوم
من امامها وهي تضحك عليه ضحك عرقوب وينصرف مسرورا
بانخداعه وغروره كأن لم تبق حاجة في نفس يعقوب
ولقد كان في امكان ذلك للفتى ان يتقرب من تلك اللبني وينال

من مودتها ما يريد بافل من المال الذى يبذله على تلك الصورة
ويبدون ذلك الغرام الذى يبذل عليه ثمرات الفؤاد ولكن الانسان
خالق للحب وخالق القلب للصباية والمهوى كما خلقت العين للنور
وكما خالق الصدر للاستنشاق النسيم فهو لا يلذه قرب الغواني
ولا يروته دنو الحسان الا اذا كان الحب مقدمة القرب وكانت
الصباية رائد ذلك الدنو والائتلاف وما أطيب بذل المال ينفق
فى كل سبيل الا فى هذا السبيل وما اغلى قاب المرأة يؤخذ مجانا
وما أرخصه اذا أخذ بالمال الجزيل

فاذا كان ذلك خالق للقلب وعلى هذا فطر الانسان فما بال
الفتى يوقف نفسه فى هذا الموقف الدنىء تحت طائلة الخداع وذلة
السحر والهوان مضافا اليهما عار الجهالة ونقص الادراك ويترك
عسرة فتاة اديبة ذات خدر اذا نطق فؤاده لديها بحرف اجابه
فؤادها بحروف واذا شعر من لحظها بسيف شعرت من الحاظه
بسيرف واذا كان لغيرها من قبلها كانت له وحده دون سواء
واذا بسطت لديها قلبه وهواه بسطت لديه اصفى من قلبه وهواه
أليس ذلك خيرا من امرأة يحبها فتحب سواء او لا تحب احدا
واذا ناداهم تبح نداء الاخداع ولا يحويه من فؤادها غير الصدى
وهل تستوى الظلمات والنور ام هل تستوى الضلالة والهدى.

من أب الى ابنه

مقتطفات مةقطعه من رسائل لجرجى زيدان

(كتبها في سنة ١٩٠٨ الى ابنه عقب دخوله الجامعة الاميركية بيروت)

... كتبت اليك أول أمس وأبنت لك ما كان لكتابك

الأول من التأثير في ، وقد كنت انتظر ذلك قياساً على ماشرت

به أنا من الوحشة حين فارقت اهلى منذ ٢٥ سنة وأرجو أن

يأتيني كتابك الثاني وفيه مايطمئن القلب . وهذا عهدى بك ،

وانت عاقل ، أن توفق بين نفسك ومايحيط بك من الاحوال

فلا تطلب أن تغير تلك الاحوال حتى توافق مرادك ... فاذا

لم يتم لك ذلك شقيت ... ذلك هو الفرق بين واسمى المصدر

وضبقى الخالق فواسع المصدر يطبق نفسه وأحواله على البيئة والظروف

التي تحيط به وهذا يدل على عقل كبير ... وأما الذى ينتقد كل

مايحيط به فلا يعجبه شيء من الأمور التي تتعلق به ولا يعجبه ما

يقوله الناس عنه ولا مايريدونه منه ولا يعجبه ماملة الناس له الا

كما يريد فهذا تمس شقى ...

... لا تزال على ما يظهر تستعظم الكتابة الى مرتين في

الاسبوع وأنا لو وجدت كل يوم ريد لكتبت كل يوم ... فافعل

أنت ذاك وأطل كتبك ما استطعت واشرح لى ماتراما أو ما يخطر

لك من أى وجه وفي حال . واءلم انك تكتب الى صديق

يحبك ويغار على مصلحتك لا الى والده يلتمس أن تهابه وتخفى عنه شيئاً من امورك . ولا اظنك تجهل انى منذ سنتين أو أكثر صرت أعاملك معاملة الصديق لصديقه . . وفي سنك كنت جباناً ولكننى لم أكن أجدم من يشجئنى ولا من يشير على أويذهنى الى نقص فى ولو وجد فوق رأسى وأنا فى مثل عمرك من ينيهنى الى نقائصى لو فرت على نفسى تعب سنين وتعبت النجاح أعواماً . فاستفدت أنت من هذه الفرصة . ان العمل فى هذه الدنيا يحتاج الى جرأة واقدام كما يحتاج الى الثبات والصبر وكما يحتاج الى العقل والصدق . . . لا ينبغي أن يطول الوقت قبل أن تتعود المدرسة واكلمها وتلامذتها . فان الرجل الحقيقى قوى الارادة من يطبق نفسه على الوسط الذى يوجد فيه ، ان ذلك دليل على القوة الحيوية فى الانسان واشبه شئ بالمرونة فى الجماد Elasticity . فالمرونة فى الاجسام الحية تقوى فى الشبان ومن فى مناهم من الاقوياء وأريد بالمرونة مرونة البدن والعقل . فالشاب اذا قرصته فى عضده مثلاً خالماً تترك العضد يعود اللحم الى ما كان عليه وأما الشيخ فاذا قرصته يطول زمن عوده الى أصله . واللحم الميت لا يعود اذلاً مرونة فيه . واعتبر ذلك فى المقول : فصاحب العقل الكبير يهون عليه تطبيق تصوراته واحكامه على جايسه او عشيره ولو كان فى الحقيقة بعيداً عن طبعه او عاداته . وهذا هو الفرق بين الناس فى ارضاء الناس

ار عدم ارضائهم فالذين يرضونهم هم اصحاب المرونة العقلية الذين
يستطيعون تكليف تصوراتهم واحكامهم حتى يفهموا جليسههم
ويفهموه . وهو ما يعبر عنه بقولهم Common Sense فكن انت
كذلك تكسب ثناء القوم وقلوب عشرائك وكن مع ذلك محافظاً
على مبادئك فان المرونة حسنة ومدوحة في التصورات والاحكام
ولكنها مكروهة وسيئة في الآداب والاخلاق . فهذه لابد من
المحافظة عليها والثبوت فيها ثبوت الجبال . فجاملة الناس لا ينبغي
أن تتمدى للملاطفة في الحديث واختيار ما يناسب المقام من الاقوال
والامثال او الملاطفة في المعاملة لرفع الاذى بقدر الامكان . اما
ما وراء ذلك فيخشى منه ان يتمدى الى الكذب والرياء
والتذبذب

. . . يسرنى سرورك لسماع اسم والدك في معرض المدح وهذا
طبيعى . . . ونحن يا حبيبى لم نستحق مثل هذه الكلمة تقال على
هذه الصورة الا بعد ان اذنبنا الدماغ وانهمكنا القوي في السهر
والاجهاد لان العصر الذى نشأنا فيه غير الذى انت فيه . فانه اسهل
عليك كثيراً أن تنال مثل هذا المقام وارتفع منه بتمب اقل ووقت
اقل . . . واما اقصى مرادى ومتماهى فهو ان تبقى متمتعاً بالصحة
والعافية وان يكون نفسك مصوناً وسمعتك شريفة وان تكون
قريباً من قلوب الناس بحسن اخلاقك . . .